مجالسُ الحديث النَّبويّ الشَّريف

الجزء الثاني

للإمام الشيخ عبد الله سِراج الدِّين الحُسيني

جمع وتقديم
ولدِهِ

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدِّين سِرَاج الدّين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

مجالسُ الحديث النَّبويّ الشَّريف

الجزء الثاني

للإمام الشيخ عبدِ الله سِرَاج الدِّين الحُسيني

جمع وتقديم

ولدِهِ

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدِّين سِرَاج الدِّين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

وفيها بيانات
بعض أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام النووي
رضي الله عنه
في (رياض الصالحين)

وهي مجالس الشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين
رضي الله عنه
في جامع الحموي
يوم الخميس
بعد شروق الشمس بقليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} باب المراقبة:

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

تقدم بعض الكلام على معنى المراقبة وقلنا: هي ملاحظة القلب للرقيب وهو الله تعالى الذي لا يغفل ولا يسهو ولا ينام، وهو سبحانه معك أينما كنت.

قال تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً).

والرقيب الحقيقي عليك هو من لازم رقَبتك، فمَن الذي هو معك أينما كنت ولا يغفل عنك ولا يسهو؟ نعم هو الله تعالى.

ومعنى مراقبة العبد لله تعالى أن يلاحظ العبد بقلبه أن الله معه أينما كان، وأنه سبحانه ناظر إليه مطلع عليه ، يعلم ويرى ظاهره وباطنه، ويعلم سره وعلانيته، ويعلم ما أخفاه في نفسه، بل ويعلم جل وعلا ما خفي في باطن الإنسان وقلبه وسيظهره له فيما بعد ، وهذا قوله تعالى: (يعلم السر وأخفى).

ويجب على كل مؤمن أن يتحقق بالمراقبة لله تعالى حتى يصح إيمانه ، ويكون ذلك رادعاً له عن معصية الله سبحانه وعن الوقوع في الذنب ، لأن من راقب أن الله تعالى رقيب عليه لا يخفى عليه شيء حمله ذلك على الحياء من الله تعالى والخشية منه سبحانه ، فيسعى جاهداً إلى أن تكون حركاته وتصرفاته وأحواله وأقواله وأخلاقه مرضية عند الله تعالى وعند رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، متابِعة لما جاء عن الله جل وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والتحقق بمقام المراقبة يتطلب من المؤمن علماً يقينياً قاطعاً لا يقبل الشك والارتياب، والمراقبة هي أن يعلم المؤمن علماً نظرياً فكرياً أن الله تعالى يراه ومطلع عليه .

وإذا أردت أن تفهم الفرق الكبير بين العلم النظري الفكري والعلم القلبي اليقيني فانظر كيف سمى سبحانه الموت بـ اليقين لأن الموت سيأتي على كل إنسان ، وما من أحد يرتاب في ذلك أو يشك أو يوسوس أنه سيموت أم لا، بل إن الموت يعلمه كل إنسان علماً يقينياً قاطعاً، ويعلم أنه سيموت عند انتهاء أجله الذي أجَّله الله تعالى له كما مات أبوه وجده وهكذا.

قال تعالى: (إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين) أي الموت ولم تعد تنفعهم الحسرة والندامة، قال تعالى: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي الموت ، فلا تنقطع الأعمال الشرعية التكليفية الدنيوية عن الإنسان حتى يموت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع عمله التكليفي الدنيوي ، إلا أن هناك أعمالاً تكليفية برزخية تناسب كل برزخ ينتقل إليه الإنسان.

[صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له] [1].

---

[1] كما في صحيح مسلم كتاب الوصية وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز عن أبي هريرة والرواية له ، وأما إكرام الله تعالى لأهل التقى والصلاح بأن يستمروا على عباداتهم وصلواتهم لله تعالى في قبورهم وفي برازخ الآخرة فهم لا يجدون بذلك كلفة أو مشقة بل يتنعمون ويتلذذون بعبادة الله تعالى.

وقد سمى صلى الله عليه وسلم الموت باليقين وذلك لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه :
[أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ][1] أي الموت ، فيجب على كل إنسان أن يعلم علماً يقينياً جازماً أن الله تعالى يراه في جميع تقلباته وسكناته ، ويعلم سره وعلانيته وخفاياه وذلك لأن الله تعالى أخبرنا عن ذلك فقال جل وعلا :
(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) ، وقال سبحانه :
(وهو معكم أينما كنتم) أي معكم بقدرته وعلمه وإحاطته جل وعلا .

وقال تعالى: (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) ، وقال عز من قائل :
(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) أي نحن معكم ولا نغفل عنكم في جميع أعمالكم وأقوالكم وخواطركم.

ومن وجه آخر فهو سبحانه الذي خلق الإنسان وخلق ويخلق أعماله وأقواله وحركاته فكيف لا يعلم ما خلق ويخلق ؟!

قال تعالى:(ألا يعلم من خلق) فخالق الشيء هو أعلم به وهو العالم به وبما أودع فيه وبما سيجري عليه وبما سيعمله، قال تعالى:
(والله خلقكم وما تعملون).

وإن علمه سبحانه بالمخلوقات علم سابق على وجودها، وجاء خلقه جل وعلا الأشياء على حسب علمه وحكمته، وعلمه سبحانه بالأشياء هو العلم المحيط بها الذي لا أول له.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

فهو سبحانه خلقك ويعلم ما فيك وما يجري عليك وهو سبحانه يسمع كلامك قبل أن تسمعه الناس ، وهو أسمع بكلامك من الناس ، وهو سبحانه يراك وهو أبصر منك من نظر الناس إليك ، وأعلم بك منك ، وهو يعلم من نفسك ما لا تعلمه أنت من نفسك، ويرى منك ما لا تراه من نفسك.

ولو تفكر الإنسان في نفسه لعلم أنه لا يرى من نفسه إلا بعض جهات منها كصدره وبطنه ورجليه ويديه ، ومن العجائب أنه لا يرى وجهه بل لا يرى عينيه اللتين تريانه الأشياء!.

ومن زعم أنه يرى وجهه في المرآة فيقال له:

إن المرآة إنما رأيت بها مثالاً عنك ولم تر بها حقيقة نفسك وذاتك ، ولو أن المرآة تريك حقيقة ذاتك لشعرت بألم إذا نحن وخزنا المرآة !

كما أنك لا ترى ما أودع الله في باطنك من أعضاء وأحشاء تقوم بأداء وظائفها حتى تبقى عليك حياتك ، ولا ترى دماغك وأعصابك ودمك الذي يجري في عروقك ، وكل ذلك على مرأى من الله سبحانه فهو الذي خلقك ويعلم ويرى ما أودع فيك بل يرى كل ذرة فيك ويمدها بما تحتاجه وتستحقه.

ومن أيقن بأن الله يراه ويسمعه ويعلم سره وعلانيته وخفايا نفسه فقد نال مقام المراقبة لله تعالى ، ويحمله ذلك على أن يستقيم في أموره وشؤونه كلها على شرع الله فيلزم أوامر الله تعالى ويتجنب ما نهاه الله عنه حياء منه سبحانه وخشية له.

ولذلك قال العارفون رضي الله عنهم:

" لا يقع الإنسان في الذنب إلا إذا غفل عن الله تعالى".

ولما أوصى شيخ مريده قال له:

" إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك" .

أي فلا تعصه أبداً لأنه سبحانه يراك وهو مطلع عليك في سائر حركاتك وسكناتك وتقلباتك ، وهو جل وعلا معك أينما كنت فكيف تجرؤ على معصيته إذا أيقنت بذلك؟!

وقد أوصى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر رضي الله عنه -وكان من السابقين للإسلام - أوصاه بقوله:

[اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن] . [1]

ثم لما أسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه ومضت عليه فترة وأرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن أميراً قاضياً أوصاه بجملة من الوصايا كان منها قوله صلى الله عليه وسلم: [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن].

ولذلك جاء الحديث عن أبي ذر وعن معاذ رضي الله عنهما.

وإن وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت موجهة لأبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما فهي تشمل أيضاً كل مؤمن إلى يوم الدين ، وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم هم وجوه هذه الأمة وهم موضع خطابات الرسول ووصاياه صلى الله عليه وسلم ، ويخاطب مَن بعدهم أيضاً من الأمة، لأن الخطاب الموجه إلى وجه الإنسان تعم منفعته ومصلحته الوجه وسائر الجسد.

قوله صلى الله عليه وسلم : [اتق الله حيثما كنت] يعني اتق الله أينما كنت وفي أي زمن كنت فيه ، فأنت مطالب بتقوى الله في جميع حركاتك وأوقاتك ، اتق الله في المسجد واتق الله في الشارع واتق الله مع الناس وفي خلواتك لوحدك واتق الله في سفرك وحضرك وفي حلك وترحالك ومع أهلك ووحدك.

---

[1] سنن الترمذي كتاب البر والصلة

ولو أنك جلست وحدك بمعزل عن الناس كلهم حتى عن أهلك فيقال لك: اتق الله ، فلا تضيع أوقات عمرك بطالة بل املأها بذكر الله تعالى ، فإن قيل : أنا أذكر الله تعالى فيقال : اتق الله في فكرك أثناء ذكرك لله تعالى ، وأشهد قلبك ما يذكره لسانك ، فكم من أناس تراهم متوجهين إلى القبلة وبيد كل منهم سبحة ويذكرون الله تعالى ويسبِّحون ولكن قلوبهم تجول من فلان إلى فلان ومن أمر إلى آخر !

وكم من أناس خلوا بأجسادهم في بيوتهم لكن قلوبهم تجول مع الناس !

وإن الإنسان بخلقه هو أعجب العجائب الخلْقية فهو أعجب من السماء وأعجب من الأرض ، وظهرت فيه من الأسرار الإلهية ما لم يظهر في السموات ولا في الأرض إذ إن في الإنسان استعداداً أن يترقى ويعلو حتى يصير في أعلى عليين ويلتحق بالملأ الأعلى مع الملائكة الكرام عليهم السلام ويحل في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، كما أن في الإنسان استعداداً أن يسفل ويهوي حتى يصير في أسفل سافلين ، فإذا كانت البهائم كالكلاب والحمير والقردة سافلة بالنسبة للإنسان فإن الإنسان لما كفر بالله وتمرد على شرع الله تعالى فقد تسفل بنفسه وصفاته حتى صار أحقر من البهائم وصار أسفل منها وهذا معنى قوله تعالى: (ثم رددناه أسفل سافلين).

ومن جادل في هذا فيقال له : إن الكلب مثلاً حيوان سافل ولا يتجاوز حد سفالته في الدناءة والخسة إلى صفة الخنازير مثلاً ، أما الإنسان إذا تجرد عن إنسانيته وجاوز حدها وطغى وفسق وكفر فقد تسفل بنفسه حتى يصير في الخسة و الدناءة كالكلب ويصير في استباحة الفاحشة كالخنزير، وفي احتياله ومكره كالقردة و الثعالب وفي الحقد كالجمل وفي البلادة كالحمار الذي لا يعرف ما يضره مما ينفعه ، وهكذا يصير الإنسان المتمرد على شرع الله مجموعة من الخبائث والرذائل اجتمعت فيه صفات البهائم وصار أسفل منها .

وفي هذا يقول سبحانه في الكفار:(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً).

ويقول جل وعلا:(والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) .

أما من آمن بالله وتمسك بدين الله تعالى وراح يترقى في مقامات القرب من الله فهو الإنسان الكامل ، وهو الإنسان العلوي الرباني الذي ينال شرف القرب من حضرة الرب جل وعلا، وإن أكمل إنسان والمكمِّل لكل إنسان هو السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء يهذب العقول والقلوب والأفكار ، ولا يُعرف الكمال الإنساني إلا عنه صلى الله عليه وسلم.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وأتبع السيئة الحسنة تمحها] وأعظم الحسنات التي تمحو الذنوب التوبة والاستغفار ، أي استغفر الله تعالى وتب اليه إن صدر منك ذنب.

واعلم أن الذنوب الكبائر لا بد لها من توبة مخصوصة حتى تُمحى، أما الذنوب الصغائر فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن هناك أقوالاً تمحو الذنوب كالتسبيح والتحميد وتلاوة القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم [١] .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [وأتبع السيئة الحسنة تمحها] أي تمحو أثرها الظلماني من قلبك ، وتمحو تسطيرها من كتاب أعمالك ، وتمحو أثرها من لوحة نفسك ومن حولك، لأن للأعمال السيئة آثاراً ظلمانية من حولك ، كما أن للأعمال الصالحة آثاراً نورانية من حولك ، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم : [إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران] [٢].

---

[١] روى البيهقي عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر الله ما تقدم من ذنبه، فاقرؤوها عند موتاكم].
وجاء في مسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَنْفُضُ الْخَطَايَا كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا].
وجاء فيه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم :
[مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ] .

[٢] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والرواية له وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

فمن استمر على ذنوبه وأصر عليها ولم يتب منها فإن الظلمة تسري إلى صميم قلبه فلا يبقى للإيمان أثر نوراني في قلبه ، قال سبحانه في الكفار :

(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أي حجبت قلوبهم وأبصارهم عن تجليات ربهم سبحانه بسبب ظلمات ذنوبهم التي خيمت على قلوبهم.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [وخالق الناس بخلق حسن] أي عامل الناس بالخلق الحسن في مقابلتك لهم وفي كلامك وصحبتك وجوارك وسائر معاملاتك مع الناس ، واحذر فلتات لسانك أن تضر أحداً بها ، ولتكن تحيتك للناس تحية حسنة بوجه طلق ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:
[ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن] [1].

وروى بعضهم في الأحاديث المسلسلة عن الحسن بن حسان السمتي عن الحسن بن دينار عن الحسن بن أبي الحسن البصري عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن جد الحسن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال:
[إن أحسن الحسَن الخلُق الحسَن] [2] .

---

[1] المسند ٢٦٢٤٥

[2] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى المستغفري في المسلسلات وابن عساكر وابن النجار.

وقال صلى الله عليه وسلم : [أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً] [1]
فليس الخلق الحسن في شريعة الإسلام من باب الامتنان على الغير أو التفضل عليه ، وإنما هو من الواجبات الإيمانية على كل مؤمن إذ لا يكمل إيمانه حتى يحسن خلقه ، وكلما حسن خلقه زاد إيمانه ، ونسأل الله تعالى أن يجعل أخلاقنا أخلاقاً إيمانية محمدية .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[1] المسند ٧٠٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب المراقبة :

الحديث الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

[كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً [1] فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

وفي رواية لغير الترمذي: [احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ،واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرَج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً].

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [يا غلام] [2]أتى بقوله [يا] مع أنه يؤتى بها لنداء البعيد والحال أن ابن عباس رضي الله عنهما قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو خلفه على الدابة!

---

[1] وكان عمر ابن عباس رضي الله عنهما وقتئذ عشر سنين ، ومن جملة أدلة العلماء أنهم استدلوا بهذا الحديث على جواز أن يركب الدابة اثنان إذا كان عندها قوة وقدرة على التحمل، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أردف خلفه عبد الله بن عباس على الدابة ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرحم خلق الله تعالى بخلق الله ، ولولا أن الدابة تتحمل ذلك لما أردف ابن عباس خلفه عليها.

[2] ويؤتى بالهمزة لمناداة القريب كقولك " أ فلان"

نعم ناداه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :[يا غلام] حتى يستجمع عقله وفكره ويتوجه بكليته إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ما سيلقيه عليه من منافع وفوائد وخيرات فجيء بـ [يا] للتنبيه.

قوله صلى الله عليه وسلم : [إني أعلمك كلمات] أي كلمات جامعة لكل خير نافعة لك في دينك ودنياك وآخرتك.

قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] أي فمن حفظ الله حفظه الله ، ومن نسي الله نسيه الله تعالى أي تركه من رحمته وعنايته كما قال سبحانه: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) أي فلم يعودوا يعرفون ما يضرهم مما ينفعهم.

وقال سبحانه في المنافقين:(نسوا الله فنسيهم) أي تركوا الله وتركوا دين الله وتركوا ذكر الله فتركهم الله من رحمته، ووكلهم الى أنفسهم ، أما نسيان العلم فهو محال في حقه سبحانه فلا يغيب عن علمه شيء كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام قوله : (لا يضل ربي ولا ينسى) ، فقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] أي لا تنس الله ، بل كن دائماً على تذكر له تعالى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] أي احفظ الله بأداء ما أمرك به من أعمال كالصلاة وغيرها من الأوامر الشرعية وبأن تجتنب ما حرم الله لأن حدود الله هي محارمه كما قال تعالى: (تلك حدود الله فلا تقربوها) وقال سبحانه : (والحافظين لحدود الله) وقال عز وجل : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] يشمل أن يحفظ الإنسان جوارحه وحواسه عن المحرمات فيحفظ سمعه عن سماع ما حرم الله ، ويحفظ بصره عن النظر إلى ما حرم الله ، ويحفظ فرجه عن الحرام كما قال تعالى:
(والذين هم لفروجهم حافظون) وهكذا...

ورُبَّ سائل يقول: هل يمكن أن أحفظ الله في قلبي ولا أنساه ولا أغفل عنه أبداً؟

فيقال: نعم يمكنك ذلك إذا أكثرت من ذِكره جل وعلا ، وفرَّغت قلبك من الأغيار التي تشغلك عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا نظر سبحانه إلى قلبك ولم ير فيه غيره ملأه من أنواره وأسراره جل وعلا ، وحفظك عندئذ من الزيغ والضلال وتولاك في سائر أمورك .

ولكي يتضح لك ذلك ألا ترى من وهبه الله ولداً واحداً ولم يهبه غيره ويسمونه " وحيِّد "وهي تصغير كلمة "وحيد " يريدون الرقة والملاطفة ، فمثل هذا تراه لا ينسى ولده ولا يغفل عنه فإذا غدا إلى عمله فإن ابنه الوحيد لا يغيب عن باله ، وإذا سافر أو تعاطى أسباب الرزق فإن ولده لا يغيب عن باله لحظة واحدة ، كل ذلك بسبب محبته وولعه بولده .

ومن الناس أيضاً من يحب ماله أشد من محبته لولده فترى أن أمواله لا تغيب عن فكره أبداً، وتراه إذا استيقظ من نومه فإن أول ما يرد إلى فكره ماله فيقال : إن هذا حافظ للمال حقاً ولا ينساه ، مع أن كلاً من المال والولد والزوج مآله إلى الفراق و الزوال ، والعاقل من أدرك هذا ولم يلتفت إلى ذلك كله بل جعل قلبه وفكره مشغولاً بربه فلا يغيب ذكر الله عن قلبه ، ولا يكِلُّ لسانه من ذكره سبحانه ، فإذا استيقظ ذَكَرَ الله تعالى وإذا أكل ذكر الله وإذا شبع ذكر الله وإذا توضأ ذكر الله وإذا خرج من بيته ذكر الله وهكذا فإن ذِكر الله لا يغيب عنه في جميع أحواله وحركاته وتقلباته كما جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ما ترك خيراً إلا ودل عليه أمته .

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله يحفظك] أي يحفظك من مكاره ومساوئ الدنيا والآخرة ويتولاك على قدر ما تحفظه ، فيحفظ أولاً عليك إيمانك لأن من نسي الله تعالى وأعرض عنه فقد عرض إيمانه للزوال كما قال عز وجل : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أما من حفظ الله ولم ينسه وحفظ دين الله بأن تحقق به قولاً وعملاً فإن الله تعالى يحفظ عليه إيمانه ودينه ويزيده هدى وصلاحاً ، ومن لم يشعر أن إيمانه في ازدياد فهو في نقصان إذاً كما قال تعالى: (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) فلا بد له إذاً من سماع التذكير والمواعظ التي ترقق القلب وتحمل صاحبه على الخير والخوف من الله تعالى مما يزيده نشاطاً إلى طاعة الله تعالى فيزداد إيمانه .

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا جلسوا مع جنابه الشريف وسمعوا تذكيره ووعظه ازدادوا إيماناً وارتفع مقامهم كما قالوا :

[نكون عند رسول الله يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين] [1]
فيرتقون إلى مقام المشاهدة وكشف الحجب.

ومن زعم أن المواعظ والتذكير ومجالس العلم لا تنفع المؤمن فقد أهمل مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره ، وكذَّب أصحاب النبي الذين قالوا : " نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين " .

وإن تذكير الرسول ومواعظه لا تقتصر على أصحابه الكرام فقط وإنما هي لسائر الأمة ، ولكل مؤمن حظه من تلك المواعظ المحمدية فبادر إلى سماعها وحضور مجالس العلم لتزداد إيماناً وخشية وعبادة لله سبحانه.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه

قوله صلى الله عليه وسلم:[احفظ الله يحفظك] أي يحفظك في برازخ الآخرة وأولها عالم القبر وهو ما بعد الموت حيث لا أنيس ولا جليس ، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فمن حفظ الله في الدنيا حفظه الله من وحشة القبر وآنسه في غربته وفرج عنه كربته في الحشر وعلى الصراط وهكذا حتى يدخل الجنة بسلام ، نسأل الله تعالى ذلك برفقة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم بفضله وكرمه جل وعلا.

قال تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد).

قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين) أي قربت لهم في كل عالم ينتقلون إليه ، ففي عالم الدنيا قرب الله الجنة من المتقين فهم يشاهدونها بقلوبهم وأرواحهم وإن لم يروها بأبصارهم ، وهم في نعيم وقرب وأنس يشعرون به كل على حسب رتبته في التقوى ، حتى قال إبراهيم بن الأدهم رضي الله عنه:" لو تعلم الملوك ما نحن عليه من اللذة والنعيم لنازعونا عليها بالسيوف "[1] أي ليأخذوها منا ، وإذا صار أهل التقوى في البرزخ قربت لهم الجنة أيضاً وراحوا يجدون من نعيمها ، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم :

[إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار][2].

وكذلك في عالم الحشر يقرب الله الجنة من المتقين فيشعرون بالأمن والسلام ويجدون الروح والنعيم وإن لم يدخلوها بعد ، ألا ترى إلى من رجع من سفر كيف يشعر بالراحة والأمان بمجرد قربه من بلده وإن لم يدخله بعد؟!.

قوله تعالى:(هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ) أي يقال لهم : (هذا ما توعدون لكل أواب) يعني رجَّاع الى الله تعالى (حفيظ) وهو الذي تحقق بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] فحفظ الله بقلبه وفي عمله بأداء أوامر الله واجتناب ما نهى الله تعالى عنه .

---

[1] انظر فيض القدير للمناوي ١٣٨/٢

[2] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ثم بين جل وعلا صفة الحفيظ فقال : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أي خشي الرحمن بقلبه لأن القلب من عالم الغيب ، وإذا خشي القلب ربه خشيت الجوارح ووقفت عند حدود الله تعالى.

قوله تعالى: (من خشي الرحمن بالغيب) أي بالغيب وإن لم ير الرحمن جل وعلا يعني ببصره لكنه يخشاه بقلبه ، وذلك لأن الإنسان في الدنيا لا يرى ربه بعيني بصره ولكنه يشهده ببصيرة قلبه ويثبته بعقله لأن آياته سبحانه ظاهرة في نفس الإنسان وظاهرة فيما حوله من الأكوان كما قال تعالى:
(وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

وقال سبحانه :(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

قوله تعالى:(من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أي بقلب ينيب إلى الله تعالى أي يحن إليه ويرجع إليه فكلما انتقل صاحب هذا القلب من عالم إلى عالم زاد قلبه إنابة ورجوعاً إلى الله تعالى.

قوله تعالى:(ادخلوها بسلام) أي يقال لهم : ادخلوها بسلام.
(ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) أي لهم ما يشاؤون في الجنة وما يريدون وهناك زيادة من الله تعالى لهم عما يشاؤون ، وذلك لأن مشيئتهم وأمانيهم على حسب علمهم فهو سبحانه يعطيهم ما شاؤوا وما تمنوا حتى إذا نفدت أمانيهم زادهم سبحانه من فضله ما لم يكن في علمهم وحسبانهم .

ومن أعظم هذه الزيادة الفضل الإلهي على أهل الجنة وهو أن يتجلى عليهم سبحانه بالرؤيا كما جاء في الحديث عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)[1] .

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومن هنا فليعلم العاقل فضل المؤمن ومكانته وكرامته عند الله تعالى رب العالمين فليحفظ نفسه ولا يضيع عمره في اللهو واللعب ، ومن حفظ الله حفظه الله وأناله كرامته .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك] أي أمامك ، وقول الرسول [تجده] ولم يقل (تره) للدلالة على المواجيد القلبية لدى المؤمن إذ إن المؤمن لا يستطيع ولا يمكنه أن يرى ربه في الحياة الدنيا لضعف نشأته الدنيوية وعدم تحمله ذلك ، حتى إذا صار في الجنة وأنشأه الله تعالى نشأة باقية أبدية يتمكن عندها أن يرى الله تعالى.

وقد خص الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالرؤية بأن تجلى عليه في عالم سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج فرأى الله تعالى بعيني رأسه ، وهذا من خصائصه وفضائله صلى الله عليه وسلم.

ومن المواجيد القلبية التي يجدها المؤمن ويشهدها ببصيرته ما أخبر سبحانه عن التائب إليه فقال جل وعلا : (ومن يعمل سوءاً) أي بارتكاب كبيرة (أو يظلم نفسه) أي بارتكاب صغيرة (ثم يستغفر الله) أي تائباً إليه (يجد الله غفوراً رحيماً) أي وجداناً قلبياً وذلك لأن الذنوب تورث ظلمة على قلب مرتكبها كما قال تعالى:(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ، وقال صلى الله عليه وسلم: [إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء] .

فإذا تاب العبد واستغفر من ذنبه زالت ظلمة الذنب من قلبه فشهد ببصيرة قلبه نور ربه وهذا معنى قوله تعالى: (يجد الله غفوراً رحيماً) أي غفوراً لذنبه رحيماً به ، ويجد في نفسه روحاً ونعيماً لأن قلبه شهد نور ربه جل وعلا .

وقال تعالى في بيان المواجيد القلبية لدى المؤمن: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً)
أي لوجدوا الله في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداناً قلبياً وراحوا يشهدون نور الله تعالى بقلوبهم.

قوله صلى الله عليه وسلم :[احفظ الله تجده تجاهك] أي أمامك بالتوفيق وإلهامك الخير وبأخذ ناصيتك لما فيه رضاه جل وعلا ، وقد قال تعالى:
(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) أي نوراً خاصاً تفرقون به الحق و الباطل ، ويكشف لكم عما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه :(ويجعل لكم نوراً تمشون به) أي تهتدون به إلى كل خير و رشاد.

فقوله صلى الله عليه وسلم:[إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله] لأن الأمور كلها بيد الله سبحانه ، وجاء في الأثر أنَّ سيدنا موسى عليه السلام قال:[يا ربِّ إنَّه لتَعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا، فأستحيي أنْ أسألك، قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك] [1]، فلو لم ييسرها الله لم تتيسر .

ولا يعني هذا أن يمتنع الإنسان عن سؤال الناس فهُم أسباب ووسائط خلقهم الله تعالى ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ، فمن سأل غيره أن يعينه على دابته أو يهديه إذا ضل طريقه وهكذا فسؤاله له على أنه واسطة في الإعانة والهداية ، وهو يعلم أن المعين والهادي على الحقيقة هو الله تعالى ، وهو سبحانه سخَّر أسباباً ونصب وسائط وأمر الإنسان أن يتعاطاها في أمور معاشه وحياته.

فقول الرسول صلى الله عليه وسلم :[إذا سألت فاسأل الله] هو سؤال عبد لربٍّ بيده حوائج المخلوقات كلها، وقد قال تعالى في بيان من يسأل الواسطة حاجته : (وأما السائل فلا تنهر) أي لا تنهره وحقِّق له مراده ما استطعت .

ولو كان سؤال المخلوق لغيره حراماً أو شِركاً لقال تعالى :
"وأما السائل فرُدَّ عليه وقل له : اسأل ربك".

فقوله صلى الله عليه وسلم: [إذا سألت فاسأل الله] فهو سبحانه يجيبك ويحقق لك سؤالك بواسطة فلان وهكذا ، وهو سبحانه المجيب على الحقيقة لكن بواسطة فلان وفلان ، فمن قال مثلاً : "اللهم ارزقني" ومضى إلى متجره سخر الله له فلاناً ليبتاع شيئاً منه ، وإن لم يكن له متجر سخر الله له من يكرمه وهكذا.[2]

---

[1] انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي
[2] ارجع إلى كتاب صعود الأقوال للشيخ الإمام رضي الله عنه

ومما تقدم يدرك العاقل أن الواسطة العظمى بين الله تعالى وخلقه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو الواسطة في الإيمان والواسطة في هداية الناس إلى الله تعالى والواسطة في رحمة الله لخلقه والواسطة في كل خير في الدنيا وفي الآخرة.

وإن شكر الواسطة الذي كان سبباً في هدايتك أو تعليمك أو رزقك أو إعانتك أو غير ذلك أمر مشروع ، ولولا أن للواسطة شأناً واعتباراً لما شرع الله تعالى شكر الواسطة فقال سبحانه في شكر الوالدين اللذين خلقك بواسطتهما :
(أن اشكر لي ولوالديك) على أنهما الواسطة في خلق الله تعالى لك ،
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[لا يشكر الله من لا يشكر الناس] [1] .

فمن الواجب عليك عقلاً وشرعاً أن تتوسل إلى الله تعالى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو الواسطة العظمى في هدايتك إلى الله تعالى ، والواسطة العظمى في كل خير ورحمة ينالها كل مخلوق من الله تعالى، ومن الواجب عليك أيضاً أن تؤدي حقه صلى الله عليه وسلم عليك في التعظيم والتوقير والاتباع والأدب معه صلى الله عليه وسلم وكثرة الصلاة عليه شكراً له صلى الله عليه وسلم لما له عليك من الحقوق.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[1] سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن أبي داود كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب المراقبة:

الحديث الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كنت خلف النبي يوماً فقال:

[يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية لغير الترمذي: [احفظ الله تجده أمامك ، تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرَج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً] .اهـ

ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في باب المراقبة لأنه من جملة ما يدل على وجوب مراقبة الإنسان ربه وهي أن يوقن العبد أن الله تعالى يراه ويطلع عليه ولا يخفى عليه منه شيء بحيث تكون هذه الملاحظة القلبية ملازمة للإنسان في سائر أحواله لا تنفك عنه ، وإلا وقع في الغفلة..

قول الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس : [يا غلام] مع أن ابن عباس رضي الله عنهما رديف رسول الله وقريب منه ، فجاء النداء بقوله صلى الله عليه وسلم: [يا غلام] لأجل أن ينتبه ابن عباس ويتوجه بكليته وقلبه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن أداة النداء [يا] يؤتى بها لنداء البعيد جسماً أو البعيد ذهناً حتى يحضر بجسمه إذا كان بعيداً أو يحضر بقلبه وفكره إن كان ذهنه غائباً ومشغولاً.

قوله صلى الله عليه وسلم : [إني أعلمك كلمات] أي فانتبه إليها وخذها بقوة أي ابذل جهدك في التحقق بها.

ثم فصّل له صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات بعد أن أجمل ، وهذا أوعى للسامع وأرسخ في ذهنه ، وعلى هذا الأسلوب جرى علماء السلف في مقام التعليم ، ومنهم من قال: إن التفصيل أولاً ثم الإجمال ، لكن الأكثرين على أن الإجمال أولاً ثم التفصيل كما دلت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث خير الأنام صلى الله عليه وسلم.

فمن ذلك أنه سبحانه ذكر في القرآن أولاً سورة الفاتحة ثم سورة البقرة وطوال السور ، وكانت معاني القرآن مجملة في سورة الفاتحة ، ودل على هذا أنه سبحانه قابل ذِكر سورة الفاتحة بالقرآن الكريم كله بقوله جل وعلا :
(ولقد آتيناك سبعاً من المثاني) أي سورة الفاتحة (والقرآن العظيم) فالأولى في مقام التعليم لأهل الأفكار العالية أن يُجمل المعلم ثم يفصل كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :[إني أعلمك كلمات] ثم فصل له بقوله :
[احفظ الله يحفظك].

وقد تقدم الكلام على ذلك إلى أن وصلنا إلى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله].
وليعلم كل مؤمن أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كلام مَن آتاه الله جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه ، فمهما فهم المؤمن ومهما عرف من معانيه فالأمر أوسع وأكبر ، ولا يقف تكرار سماعك لحديث ما أو فهمك لشيء من معانيه لا يقف ذلك حاجزاً أو مانعاً لك عن سماع وتقبل معان وبيانات أخرى لهذا الحديث الشريف ، واجعل موقفك منه موقف السامع المصغي لألفاظه وبيانه ومراميه وكأنك تسمعه لأول مرة ، وذلك حتى تشملك الفائدة بزيادة إيمانك وعلمك.

قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله] أي إذا سألت حاجاتك أو مهماتك سواء المتعلقة بك أو بمن حولك فاسأل الله، والله يحب أن يُسأل لأن حوائج السائلين بيده سبحانه ، بل إن الأمور كلها بيده سبحانه كما قال تعالى: (قل إن الأمر كله لله) أي إن الأمر كله لله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً ، ولا شريك معه سبحانه في خلق الأمور ولا في تدبير شؤونها .

قال جل وعلا :(واسألوا الله من فضله) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من لم يسأل الله يغضب عليه] [1]، وقال عليه الصلاة والسلام :[سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ][2]، فمن سأل الله حاجته فقد تقرب الى الله بما يحبه ، ونال من الله ما يحب من حاجته، ولكن إجابة الله عبده تكون على حسب علمه وحكمته سبحانه ، وتكون بما هو أصلح للعبد ، والإجابة حاصلة لا محالة كما بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

[مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ ، فَإِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يُكَفَّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ أَوْ يَسْتَعْجِلْ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ ؟
قَالَ : يَقُولُ : دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجَابَ لِي] [3].

---

[1] سنن الترمذي كتاب الدعوات
[2] المرجع السابق
[3] المرجع السابق

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله] لا ينافي أن يسأل الإنسان غيره من الناس أو يتوسط بهم في بعض أموره وهكذا ، كما لو سألت عالماً عن أمر من أمور الدين ، أو سألت أحداً أن يهديك إلى طريق أو مكان تريده ، أو سألت أحداً أن يعينك على دابتك أو نحو هذا فإن سؤال العبد غيره من العباد هو من باب الوساطة والأخذ بالأسباب.

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن أمور كثيرة ويجيبهم عنها ولم ينبههم بقوله : "سلوا الله ولا تسألوني" ، وهذا كما جاء خبره في القرآن الكريم :

(يسألونك) و(وإذا سألك عبادي عني) و(ويسألونك عن اليتامى) .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] يعني اعلم أن الأمور كلها بيد الله خلقاً وتدبيراً ، ولا ينافي هذا أن تسأل المخلوق على أنه واسطة ووسيلة ، فمن أراد أن يتعلم شيئاً فيقول : "يا رب علّمني" ويذهب الى العالم فيسأله ويجيبه، وكذلك من يقول: " اللهم ارزقني " ثم يسعى في طلب الرزق بعمله وتجارته ، فأنت تعامل الناس وتسألهم ويسألونك حاجاتهم ، وتتبادل معهم السلع والبضائع والأموال ، وهكذا يأتيك الرزق عن طريق المخلوقات إلا أن الذي ساقه لك هو الله تعالى .

ولقد هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان لكن بواسطة رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا : (من يهد الله فهو المهتد) ، وقال سبحانه وتعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) ، وقال عز من قائل : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) فالهادي على الحقيقة هو الله تعالى لكن السبب والواسطة في الهداية هم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعظمهم رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الرزاق على الحقيقة هو الله ولكن قد يرزق غيرُه على سبيل الواسطة كما قال تعالى: (فارزقوهم منه)، وكذلك المُطعِم على الحقيقة هو الله تعالى كما قال جل وعلا :(قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم) ، وقال تعالى مخبراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله : (الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين) ولكن قد يكون هناك من يطعمك من المخلوقات على سبيل الواسطة والسبب وذلك بتوفيق وإلهام من الله تعالى.

فلقد أطعمك الله بواسطة فلان ، ورزقك بواسطة فلان ، وعلّمك بواسطة فلان ، وهداك بواسطة فلان ، وأعانك بواسطة فلان ، فلا تنكر الواسطة وأثبتها على أنها واسطة ، فهي لا حول لها ولا تدبير من ذاتها بل إن المؤثر والفعال في الوسائط والأسباب هو الله تعالى خالق الأسباب وخالق كل شيء.

وفي الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال:[كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] - وكان خادم النبي صلى الله عليه وسلم – [فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي: سَلْ] - وفي رواية : [سلني أعطك]- [فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ :هُوَ ذَاكَ ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ][1].

فانظر أيها العاقل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [سل] وفي رواية :

[سلني أعطك] وقول ربيعة :" أسألك مرافقتك في الجنة " ، ولم ينهه صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال، ولم يقل له: "سل الله ذلك ، وأنا لا أُسأل هذا "بل أجابه وأراد أن يعرف شدة حرصه على هذا الطلب فقال: [أو غير ذلك؟] فلما رأى حرصه الشديد على ذلك بشّره صلى الله عليه وسلم بقوله: [فأعني على نفسك بكثرة السجود] وأكون لك واسطة في ذلك أي أن الله تعالى سيعطيك مرادك بمرافقتي في الجنة لكن ينبغي عليك أن تعد نفسك لذلك وتتهيأ لهذا الفوز الكبير بأن تكثر من الصلاة لله تعالى.

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة والمسند ١٥٩٨٣

وهذا يدل على مشروعية سؤال الواسطة وأن تتوسل بها إلى الله تعالى ، بل أن تسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجاتك وتتوسل به الى الله تعالى ليشفع لك عند الله ليقبل مرادك.

فعلى المؤمن العاقل أن يقوم بإعطاء المراتب حقها فيعترف لله تعالى بالألوهية والسيادة المطلقة والخلق والتدبير والتصرف ، وأن يعترف لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه واسطة الله العظمى وأنه الشفيع الذي لا شفيع له وأنه الإمام الذي لا إمام له.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإذا استعنت فاستعن بالله] أي أن المعين على الحقيقة هو الله تعالى فإذا طلبت العون فاطلبه منه، ولا ينافي هذا أن يسخِّر لك واسطة لعونك ، ولا ينافي هذا أن يسأل العبد مخلوقاً غيره أن يعينه كما قال تعالى مخبراً عن نبي الله ذي القرنين عليه السلام قوله: (فأعينوني بقوة) فاستعانة العبد بالله استعانة عبد معترف موقن بأن الحول و القوة لله جل وعلا ، وأما استعانته بمخلوق مثله فهي استعانة به على أنه واسطة في العون سخرها الله تعالى له، وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] [1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم :
[وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة] [٢] .

وأما معنى [لا حول ولا قوة إلا بالله] أي لا حول لمتحول عن أمر من الأمور ولا قوة لمتقو على فعل من الأفعال إلا بالله العلي العظيم.

وإن التحقق بمعنى قولك: [لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم] هو من أعلى مقامات ومراتب التوحيد، وإن غفلة المؤمن عن قوة الله وحوله في تحركاته وسكناته وتحولاته في أموره ورؤيته لقوة نفسه هو من أعظم الذنوب عند أهل الله تعالى وينبغي الاستغفار من هذه الغفلة .

---

[١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الزكاة

قوله صلى الله عليه وسلم : [واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك] يعني أن الأمور كلها مقضية ، وأنه سبحانه قدر مقادير الأشياء وكتبها قبل أن يخلقها كما قال تعالى :(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وإن قضاء الله تعالى وقدره لا يسلب العبد اختياره وإرادته ، إذ إن المسؤولية والمحاسبة لا تكون إلا على الأفعال التي تصدر من الإنسان باختياره و إرادته ، وإذا صدر منه ما لا اختيار له فيه فلا مسؤولية عليه كما لو عطس عدة مرات في صلاته وصدر منه صوت العطاس قوياً ، وأما لو صاح في صلاته باختياره فتفسد صلاته، وكما لو اضطر إلى أكل الميتة أو الخنزير أو شرب الخمر إذا لم يجد غيره بقدر ما يدفع الموت عنه فلا مؤاخذة عليه عندئذ فافهم .

ومن ذلك يدرك العاقل أن الاختيار والإرادة صفة ثابتة في الإنسان، وهو يفرق في أموره وحركاته بين ما لا اختيار له فيه كالعطاس والرعشة وغيرها وبين ما هو مختار فيه فالقضاء والقدر أمر ثابت والاختيار في العبد أمر ثابت ولا يظلم ربك أحداً.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

قال الإمام الشيخ محي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب الاستقامة :

قال الله تعالى: (فاستقم كما أمرت) وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم).

وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون).

وعن أبي عمرو - وقيل أبي عمرة - سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: [قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ، فقال: قل: آمنت بالله، ثم استقم] رواه مسلم .اهـ

الاستقامة هي أن يقيم الإنسان نفسه مستقيمة على أوامر الله تعالى، والإقامة تقتضي الاستيطان والثبات وعدم التحول والتردد ، واستقامة الإنسان على شرع الله تعالى تعني تحققه بأوامر الله تعالى دونما تأخر أو تباطؤ أو تكاسل أو إهمال لبعضها ، وإلا فهو لم يتحقق بعد بمقام الاستقامة.

قال تعالى: (فاستقم كما أمرت) وإن كان الأمر موجهاً الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً فلا ينافي أن يشمل أُمَّته لأن الرسول صلى الله عليه وسلم موضع تلقّي خطابات رب العالمين.

قوله تعالى: (فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) أي استقيموا كما أمر الله تعالى دون تفريط ولا إفراط ولا مغالاة، ومن طُلب منه أن يقيم نفسه على خط مستقيم فإن ذلك يتطلب منه جهداً لكيلا يضطرب أو يميل ، وهكذا استقامة الإنسان على شريعة الله تعالى تتطلب منه جهداً واهتماماً بأمور الشريعة القولية والعملية والقلبية والخلُقية .

قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستقيم كما أمره سبحانه ، واستقامة الرسول صلى الله عليه وسلم تتناسب مع مقامه المحمدي الخاص به ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو في الترقي الدائم في مقامات الاستقامة والقرب من الله تعالى ، ولذلك قال تعالى : (ولا تطغوا) فخاطب الأمَّة ولم يقل جل وعلا:" ولا تطغ " فقوله تعالى : (ولا تطغوا) أي لا تتجاوزوا حد الاستقامة الذي شرعه الله لكم.

قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي قالوا (ربنا الله) وقلوبهم مؤمنة بذلك ، وإلا فلا اعتبار لنطق اللسان إذا لم يُفْضِ الايمان إلى القلب كما هو شأن المنافقين.

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله تعالى إيماناً قلبياً صادقاً وقالوا بألسنتهم (ربنا الله) أي هو سبحانه خالقهم ورازقهم والقائم عليهم والمدبر أمورهم.

قوله تعالى: (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي استقاموا على ما قالوا لأن قولهم إيمانهم بالله وقولهم (ربنا الله)يتطلب منهم برهاناً وتصديقاً وهو العمل الصالح ، ولا عبرة للعمل إلا إذا استقام صاحبه بأن تحقق بما أمره الله تعالى من الإخلاص لله تعالى في أقواله وأعماله كلها.

فالاستقامة إذاً هي أن يكون المؤمن المستقيم متابعاً في أقواله وأعماله لما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخلصاً فيها لله تعالى.

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى:(إن الذين قالوا ربنا الله) - أي قالوا ربنا الله إيماناً بالله - فقال صلى الله عليه وسلم :[قل آمنت بالله ثم استقم] والإيمان تصديق بالجَنان وعمل بالأركان ويدخل فيه نطق اللسان بالشهادتين.

روى ابن المبارك في الزهد والرقائق عن الزهري أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلا هذه الآية: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فقال: "استقاموا والله لله بطاعته " - أي التزموا أوامر الله تعالى - "ولم يروغوا روغان الثعالب" .

وذلك لأن الثعلب لا يمشي في طريقه مستقيماً بل يمشي يمنة ويسرة حتى يلبس على من تتبعه ولا يمكِّنه منه.

قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة) والتنزل يعني التدرج في النزول يعني أن الملائكة تتنزل على أهل الاستقامة في كل عالم يحلون فيه على حسب استقامتهم.

وتتنزل الملائكة على أهل الاستقامة بالبشائر لا بالوحي إذ لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في الحديث كما في المسند : [لَا يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ أَوْ تُرَى لَهُ] ، وهو معنى قوله تعالى في أوليائه الكرام رضي الله عنهم : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله) أي لا تتغير أوامر الله تعالى بتنزل البشائر على أهل الولاية(ذلك هو الفوز العظيم).

قوله تعالى:(تتنزل عليهم الملائكة) أي في كل عالم ويشمل ذلك عالم الدنيا تتنزل الملائكة على قلوب أهل الاستقامة بالبشائر والسكينة والطمأنينة والإلهام الصادق والدلالة على فعل الخير.

كما تتنزل الملائكة على المؤمن المستقيم على أمر الله تعالى تتنزل عليه حين يأتيه الموت وتبشره وتؤانسه لأن حالة الموت حالة ينتقل منها الإنسان من عالم الدنيا ويرحل فيها عن أهله وأقاربه وأصحابه فيحتاج في هذه الحالة إلى من يؤانسه ويذهب عنه فزعه فتأتيه الملائكة بالبشائر والكلام الطيب ، وهذا قوله تعالى: (ألا تخافوا ولا تحزنوا) أي لا تخافوا مما ستقدمون عليه ولا تحزنوا على ما فاتكم(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) أي وعدكم الله تعالى بها في كلامه النازل على رسوله الكريم، ووعدكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبراً عن الله تعالى.

وهكذا يستمر تنزل الملائكة على أهل الاستقامة في جميع العوالم ، ويأتونهم بالبشائر من الله تعالى لأن الملائكة لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى كما أخبر سبحانه عنهم قولهم (وما نتنزل إلا بأمر ربك) ، وقال تعالى في حقهم : (ويفعلون ما يؤمرون) فلا يفعلون شيئاً إلا بأمر من الله جل وعلا.

قوله تعالى: (ألا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف انزعاج النفس واضطرابها من توقع حصول مكروه في المستقبل، والحزن هو الندم والأسف على ما مضى ، فالملائكة تبشر المؤمنين المستقيمين دائماً على طاعة الله أن لا يخافوا من المكاره التي سيقدمون عليها ولا يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا وما فيها إذ إن ما وعدهم الله هو خير كله كما ورد في دعائه صلى الله عليه وسلم لما صلى على جنازة أنه قال :

[اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّهِ مِنْ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ] ..الحديث [1]

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) أي على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كنتم في الحياة الدنيا.

وقد يحزن المؤمن على أهله وعياله ويظن أنهم سيلقون الشدة والضيم من بعده فتبشره الملائكة بأنهم يتكفلون بهم من بعده وتقول له كما أخبر سبحانه عنهم :(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) فنحن نخلفكم فيهم ونلهمهم الخير كما كنا نفعل معكم.

(وفي الآخرة) أي نحن نبشركم ونحن معكم ونؤانسكم لأننا نحن أولياؤكم أي أحبابكم وأنصاركم وبيننا وبينكم الولاء والمحبة فلا نترككم، وكيف يتخلى الصديق عن صديقه والحبيب عن حبيبه ؟! .

قوله تعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي بيننا وبينكم يا أهل الاستقامة مودة ومحبة وولاء، ونحن حريصون عليكم وعلى نفعكم ، فلما كنتم في الدنيا كنا نأتي إلى قلوبكم ونحذركم من الشر ونلهمكم الخير ونبشركم عند الكربات والشدائد.

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز

وقد قال سبحانه : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) وبيَّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الآية فقال:

[إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ قَرَأَ:(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا [1]وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[2] .

قوله تعالى مخبراً عن الملائكة عليهم السلام قولهم: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) فكنا نحضر معكم مجالس الذكر والعلم كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث: [وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا حفَّتهم الملائكة ..] [3] الحديث ، وكنا نحضر معكم الصلوات ونصلي معكم كما قال صلى الله عليه وسلم:[إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] [4] يعني أن الملائكة يصلون خلف الإمام ويقولون " آمين " لما يفرغ الإمام من قراءة قوله تعالى:
(غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

وكنا نحن الملائكة نحضر معكم مجالس صلاة الجمعة كما قال صلى الله عليه وسلم: [فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ [5]].

قوله تعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فكما كنا معكم في الدنيا بالمحبة والمناصرة والمؤانسة والبشائر فلا نترككم الآن لما صرتم في الآخرة فنبقى معكم مؤانسين مبشرين حتى تدخلوا الجنة ويحل عليكم أمان الله ورضوانه.

---

[1] أي بواسطة الملائكة
[2] انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
[3] انظر مقدمة سنن ابن ماجه
[4] صحيح البخاري كتاب الأذان
[5] صحيح البخاري كتاب الجمعة

وإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولاهم يحزنون بل تأتيهم الملائكة بالبشائر برفعة الدرجات وعلو المقامات ونيل ألوان النعيم، والسلام من الله تعالى عليهم.

قوله تعالى:(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) والدنيا مأخوذة من الدُّنوِّ بمعنى القرب [1]، وسميت بذلك لأنها أقرب حياةٍ إلى الإنسان، وأما حياة الآخرة فهي حياة أقوى وأعلى وسوف يأتي عليها الإنسان.

وقال بعضهم : الدنيا مشتقة من الدناءة إذ إن الدنيا وما فيها لا تزن شيئاً بالنسبة للجنة وما فيها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : [ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع] [2].

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الاستقامة ويوفقنا لذلك لنفوز بالكرامة.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

---

[1] قال المناوي في فيض القدير ٤٢/١ : والدنيا من الدنو لسبقها الآخرة أو لدنوها إلى الزوال أو من الدناءة أي الخِسَّة .

[2] سنن ابن ماجه كتاب الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في المبادرة إلى الخيرات :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ] رواه الترمذي وقال: حديث حسن. اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في روضة المبادرة والتسابق في الخيرات والإسراع إلى الأعمال الصالحة ، ويتحتم هذا على من أراد سلوك طريق العبادة والالتحاق بزمرة الصالحين من عباد الله تعالى.

وقد نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن وحذره من خطر تسويف الأعمال أو الإبطاء فيها أو التكاسل عن النهوض إليها فقد تعرض له العوارض وتمنعه الموانع وذكر صلى الله عليه وسلم منها أموراً جامعة فقال: [بادروا بالأعمال سبعاً] أي غالبوهن واسبقوهن قبل أن تعترض أحدكم إحدى هذه الأمور وتتغلب عليه، والعوارض هي ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: [هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً ...] فقد يعتري الإنسان في عيشه الغنى أو الفقر ، وقد يعتريه في صحته المرض أو الهرم ، وقد يأتيه الموت فينهي حياته الدنيوية ، وقد يعتريه أمر خارجي فتنته عامة وهو الدجال ، وقد تدركه الساعة ولا يستطيع عندها أداء ما فاته أو تعويض ما خسره.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [فقراً منسياً] لأن من ضاق حاله وقل رزقه اشتغل فكره وتعب باله فتراه قد لا يصحو لعباداته ولا يخشع في خلواته ويضعف نشاطه لطاعة الله تعالى لأن الاهتمام بأمر الدنيا ومعاشها وكسبها أنساه وأعاقه عن فعل كثير من الطاعات والقربات وصفاء القلب.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو غنى مطغياً] لأن من فتحت عليه أبواب الدنيا ووجد من أموالها وتجاراتها ما يعشقه قلبه ويشغل فكره عن الآخرة فلا يخشع في عباداته ، وقد تأخذه الدنيا ويفتن بها فيهمل عباداته ويترك ما أوجب الله عليه ، ففقر الدنيا بلاء وغناها بلاء أي تكليف وامتحان يختبر به الإنسان ، ولا ينجو إلا من جعل تقوى الله سبحانه همّته وطريقه.

وليعلم كل مؤمن أن الأجل أسرع إليه من بلوغ الأمل فلا يؤجل عمل اليوم الى الغد فقد لا يدركه ، وإن لكل وقت حقاً على الإنسان يطالبه به ، فإذا فرغ من عمل فعليه أن ينصب الى غيره، فلا كسل ولا إهمال ولا تسويف ولا بطالة في الالتزام بدين الله تعالى.

وإذا كان للإنسان في الدنيا آمال كبيرة فإن عمره في الدنيا لا يتسع لتحقيق تلك الآمال فليصرف آماله إلى الآخرة التي هي دار الخلود ، وليأخذ من الدنيا نصيبه الذي قسمه الله تعالى له على الوجه الذي شرعه جل وعلا .

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مرة جالساً بين أصحابه الكرام رضي الله عنهم فأخذ بِحَصاتين فرمى إحداهما قريباً و الأُخرى أبعد ، فالتفت الصحابة لمعرفة الحكمة من فعل الرسول لأنهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعبث ولا يلهو ، وأعماله وحركاته إنما هي بالحق والحكمة ، فقال صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً :[هذا الأجل] - للحصى القريبة - [وهذا الأمل] [1] للحصى البعيدة ، فموقف الإنسان كذلك إذا جاءه الأقرب يعني أن الإنسان بين أجل قريب وأمل بعيد ، فإذا جاءه الأقرب وهو الأجل لم ينل أمله من الدنيا.

---

[1] كما في شعب الإيمان للبيهقي وأصل الحديث في سنن الترمذي كتاب الأمثال

وقوله صلى الله عليه وسلم:[أو غنى مطغياً] فقد يأتي الغنى على الإنسان فيطغيه، قال تعالى:(إن الإنسان ليطغى* أن رآه استغنى) أي إن الإنسان يتعدى حدود الله وينتهك حرماته إذا رأى نفسه استغنى، فمتى رأى نفسه استغنى بالمال طغى ، ومن لم ير نفسه استغنى بالمال فلا يطغى ، لأنه وإن كثر ماله يرى نفسه مفتقراً إلى الله تعالى في كل أحواله فلا يتكبر ولا يتجبر ولا يعشق قلبه المال بل إنه يتقي الله تعالى ويمتثل لأمره ، ويرى أن ما به من نعمة هو من الله تعالى فيحمده سبحانه ويقوم بأداء حق الله عليه ، فمثل هذا يكون قد استغنى بالله عن المال ولم يستغن بماله عن الله تعالى فافهم .

قوله صلى الله عليه وسلم:[أو هرماً مفنداً] فلا يشعر الإنسان بالزمان إلا وقد انطوى عمره وفات وقت الشباب والقوة والنشاط وكبرت سنه ووهن عظمه واحدودب ظهره ، وقد يتغير فكره ومزاجه وربما تغير رأيه واعتراه الفند وهو انحراف الرأي عن الاستقامة والصواب ، وهو مرض قد يصيب الإنسان إذا كبرت سنه ولا يعتبر ذلك عيباً أو نقصاً في حقه إذ هو مرض من أمراض الشيخوخة ، فليغتنم الإنسان حال شبابه وقوته وصلاح رأيه وصواب فكره وليبادر إلى الأعمال الصالحة قبل أن يصيبه الهرم بأمراضه .

قول الرسول: [أو موتاً مجهزاً] وهذا مما لا يضمنه الإنسان فلا يضمن طول أجله فقد يأتيه الموت بغتة ويجهز عليه.

وفي هذا تنبيه للعاقل ألا يؤخر الأعمال الصالحة أو يؤجلها زعماً منه أن في العمر بقية، وليكن دوماً مستعداً للقاء ربه وهو عنه راض ، نسأل الله تعالى ذلك من فضله.

ولا يعتبر موت الفجأة عقوبة في حق من أصابه ،وعلى المؤمن أن لا يسيء ظنه بالمؤمنين فعن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موت الفجأة فقال : [راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر] [1] أي هو بالنسبة للمؤمن تخفيف من الله تعالى عليه فلا يجد من المشقة والبلاء وسكرات الموت شيئاً.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو الدجال فشر غائب ينتظر] أي فلا يتكاسل أحدكم إلى النهوض إلى الأعمال الصالحة أو يتقاعس فيها وكأنه ينتظر ظهور الدجال فالدجال شر غائب ينتظر لكثرة شروره وفتنه إذ إنه يأتي بالعجائب والغرائب فيفتن بها الناس ويتبعونه ويضلون.

والدجل هو التلبيس، والدجال يظهر الأمور الباطلة والضلالات بمظهر فيه خديعة ومكر بحيث يظن الإنسان أنها حق ، إلا من نظر وتدبر.

ويعتبر ظهور الدجال من العلامات الكبرى لقرب الساعة كما دلت عليه الأحاديث النبوية المتواترة [2].

ولما يظهر الدجال فإنه يدعي أولاً الولاية ثم النبوة ثم الألوهية وقد بين سيدنا رسول الله علامات كذبه ودجله ومنها أنه :

"مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ "[3] .

ومنها أيضاً أنه أعور العين اليمنى ، قال صلى الله عليه وسلم:

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ العَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ [4]) .

وفي رواية : (تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ) [5] .

---

[1] المسند ٢٣٨٩١

[2] قال الكتاني في كتابه (نظم المتناثر من الحديث المتواتر) ٢٢٩/١ :
والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ، وكذا الواردة في الدجال ، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام .

[3] صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

[4] صحيح البخاري كتاب المغازي

[5] سنن الترمذي كتاب الفتن .

وهذا تكذيب للدجال الذي زعم أنه هو الرب، والرب تعالى لا يُرى في الحياة الدنيا بعيني البصر، أما المشاهدات القلبية فتحصل لمن ارتقى في مقامات الإيمان.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ [1]] قد يجعل الإنسان يتساءل:
وهل أحد من المؤمنين يصف الله بأنه أعور حتى نفى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: [وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ] ؟

نعم لقد نبه إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الدجال يأتي بالعجائب والغرائب المدهشة للعقول التي قد تسيطر على مدارك الإنسان فلا يرى عور الدجال بل يؤخذ بالعجائب والغرائب.

ولا تفكر أن ذلك أمر مستبعد حصوله فقد عبد سبعون ألفاً من بني إسرائيل عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري لما رأوا فيه من الأمر العجيب والغريب الذي أدهش قلوبهم وسيطر على أفكارهم إلا أنهم لو تفكروا وتدبروا لما فعلوا ذلك.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

وقد كشف الله تعالى للسامري عن الفرس الذي جاء به جبريل عليه السلام إلى سيدنا موسى ليصحبه معه الى جبل الطور حيث رأى وقع حوافر الفرس على الأرض إذ كانت تخضر كلما رفع الفرس حوافره عنها، وكان هذا الكشف في حقه فتنة واختباراً أظهر نفاقه وكفره بموسى عليه السلام ، فأخذها وألقاها في جوف العجل الذي صاغه من الذهب فصار العجل الذهبي يتحرك وله خوار وقال لبني إسرائيل: " هذا إله موسى " ، فعبدوه حتى رجع موسى إليهم وكان ما كان [1].

وعلى المؤمن أن يكون حذراً يقظاً ينظر إلى حقائق الأمور ولا تأخذ العجائب والغرائب عقله وتفكيره فتحجبه عن رؤية الحقيقة ، وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى] أي اجتمعت معهم اجتماعاً خاصاً [قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أما وجْبتها] أي وقت وجوبها وثبوتها [فلا يعلمها أحد إلا الله ، ذلك وفيما عهد إلي ربي عز وجل أن الدجال خارج] - أي سيخرج – [قال : فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص] [2] .

قوله صلى الله عليه وسلم : [أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمر] أي فأسرعوا وبادروا إلى الأعمال الصالحة قبل وقوع الساعة وقيام القيامة حيث لا ينفع الندم ولا تمني الرجوع الى الدنيا لتدارك ما فات .

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور عند تفسيره لقِوله تعالى : (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

[2] انظر المسند ٣٣٧٥

وإن الإنسان إذا مات فقد وقعت ساعته وقامت قيامته [1]ودخل في عالم البرزخ الذي هو أول عوالم الآخرة، فالموت بالنسبة للإنسان هو القيامة الصغرى ، وأما القيامة الكبرى فهي تأتي على كل الناس وعندها يقوم الناس لرب العالمين للسؤال والحساب والجزاء ونسأل الله تعالى المغفرة والرحمة.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين

---

[1] قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة:
روى الديلمي عن أنس مرفوعاً : [إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته].

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في قضاء حوائج المسلمين:

قال الله تعالى:(وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
[المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة]متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
[من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريق يلتمس فيه علماً سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطَّأ به علمه لم يسرع به نسبه] رواه مسلم . اهـ

قوله تعالى:(وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) الخير هو العمل الذي يفعله المؤمن لينتفع وينفع به غيره ،سواء كان هذا العمل دنيوياً أو أخروياً طالما أن فيه خيراً يتعدى للغير.

ومن فعل الخير فقد تحقق بالرجاء المقبول عند الله تعالى أن يجعله من المفلحين ، فقد علق سبحانه رجاء الفلاح على فعل الخير قال جل وعلا :
(وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وذلك لما في فعل الخير من أثر واعتبار وفضل.

قوله صلى الله عليه وسلم : [ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته] أي من سعى في قضاء حاجة أخيه المسلم فإن الله تعالى أولى به أن يقضي حاجته لأنه أحق بالكمال والنوال والخير كله منه سبحانه، ومن أخذته الغيرة على أخيه المسلم وقام لحاجته فالله سبحانه أغير من ألا يقضي حاجة من كان في حاجة غيره.

ولا تقتصر حوائج العباد على الأمور المالية فقط بل هي من الحوائج ، فهناك الحاجة إلى المعونة بالجاه والنصح والعلم ، وهناك من يحتاج إلى الكلام الطيب والمؤانسة وهكذا تختلف حوائج المحتاجين.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نلفت الانتباه الى أمر هام وقع فيه كثير من المسلمين وهو عدم الاكتراث أو التدبر فيما يسمعه من آيات قرآنية كريمة أو أحاديث نبوية شريفة إذا تكرر سماعه لها ، فتراه يسمع الآية أو الحديث وكأن معانيها من الأمور المعلومة عنده ، وما درى مَن هذا شأنه أن معاني ومفاهيم آيات الله تعالى لا تتناهى لأن هذه الآيات هي كلام الله تعالى، وكلامه صفته سبحانه، وصفاته جل وعلا لا تتناهى فمعانيها لا تتناهى، وهناك فهم فوق فهم .

ولا يمكن لأحد أن يحيط فهماً بمعاني آيات الله تعالى حتى إن أهل الجنة وهم في الجنة يقرؤون القرآن ويترقون في المفاهيم والعلوم القرآنية كما ورد في الحديث أنه يقال لقارئ القرآن : [اقرأ وارق] [1]أي في الدرجات والفهم.

---

[1] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

فيجب أن يكون موقف العاقل لدى سماعه تفسير آية أو بيانها موقف المتعقل لها المتدبر فيها ، وأن يكرر سماعها مرات ومرات فربما فهم شيئاً كان غائباً عنه ، وربما انتبه لأمر كان غافلاً عنه، وكذلك يجب على العاقل أن يكون موقفه مع أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي كلام مَن آتاه الله جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه .

ولكي يتضح لك الأمر جلياً فتدبر في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون). فربما تبادر الى ذهنك أن هذه الآية أسمعها كثيراً بل أسمعها كل جمعة على لسان الخطيب، وإن معانيها معروفة معلومة لا حاجة لبيانها ، فنقول : ولكنك ماذا تفهم من قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل) وما هو العدل في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ؟

إن مفهوم العدل في الآية الكريمة يشمل أولاً أن يعدل الإنسان في أحكام العقل، وأن يعدل في أحكام الشرع، وأن يعدل مع نفسه ومع أولاده وزوجته وجيرانه، وأن يعدل مع خلق الله كلهم حتى مع البهائم أيضاً.

وأول العدل وأصله أن يكون الإنسان عدلاً مع الله تعالى بأن يشهد أن لا إله إلا الله كما قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.[1]

ولكي يتضح لك ذلك فاعلم أن الظلم ضد العدل وقد وصف الله سبحانه الكافرين بالظلم فقال جل وعلا:(والكافرون هم الظالمون) ، وقال عز من قائل: (إن الشرك لظلم عظيم) فالشرك ظلم لأن المشرك لما أشرك فقد ظلم في الحكم بأن حكم في عقله أن هذا الصنم أو الوثن إله مع الله تعالى وشريك لله سبحانه بينما العدل يطالبه بأن يحكم بأن لا إله الا الله ويشهد بذلك.

فالعدل في أحكام العقل أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله، وهذا ما جاءت به شرائع الله، فتوحيد الله تعالى عدل بل هو أصل العدل، والشرك ظلم عظيم.

---

[1] انظر الدر المنثور ١٦٢/٦

قوله صلى الله عليه وسلم:[من نفَّس عن مؤمن كربة نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] والتنفيس هو التوسعة والتفريج وكأن الإنسان لما تصيبه الكربة يضيق صدره ويكاد يختنق ، فلما يتقدم أحد ليزيح هذا الكرب عنه ينشرح صدره ويتوسع نفسه وكأن الحياة قد عادت إليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [من نفَّس عن مؤمن كربة] أي ولو كانت جزئية صغيرة جداً ،لأن التنكير هنا للتصغير و التقليل [نفس الله عنه كربة] -أي كربة عظيمة -[من كرب يوم القيامة] إذ لا مناسبة ولا مقارنة بين كُرَب الدنيا وكرب يوم القيامة الذي تشتد فيه الأهوال والكربات، نسأل الله العافية.

ومن هذا تفهم مدى الارتباط الوثيق بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة ، وأن من أحسن إلى خلق الله أحسن الله إليه، ومن أساء إليهم فقد أساء إلى نفسه وأصابه سوء عمله كما قال تعالى:(ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وقال سبحانه :(ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى) .

ومن بغى وطغى عاد سوء فعله عليه، كما قال تعالى:(يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) وقال جل وعلا:(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها).

ومن فرَّج أيضاً شدة أصابت حيواناً أو بهيمة فرَّج الله عنه يوم القيامة، فمن ذلك مثلاً من سعى في تخفيف حمل ثقيل عن دابة أو نهى أحداً عن ضربها، وإن في قصة الأعرابي الذي سقى الكلب العطشان عبرة لمن اعتبر[1].

فقوله صلى الله عليه وسلم: [من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] يدل على عظمة وشدة أهوال وكربات يوم القيامة ، وعلى العاقل أن يأخذ أسباب النجاة والوقاية من تلك الكربات ، ومن جملة هذه الأسباب الإحسان إلى خلق الله والسعي إلى تفريج الكربات عنهم.

---

[1] روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّه وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ .

قال صلى الله عليه وسلم:

[ومن يسَّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة] فإذا كان المعسر مديناً لك بالمال فأمهله في دفع الدين حتى تتيسر أموره، وإذا اشتدت العسرى عليه فأسقط عنه جزءاً من الدين أو اجعله في حل منك بأن تسامحه بكامل الدين إن كنت غنياً موسراً، واعلم أن الله يقابلك على أعمالك فإن يسرت على خلقه يسر عليك، وإن شددت عليهم شدد عليك فكما تدين تدان أي كما تحاسِب تُحاسَب ، وكما تجازي تُجازى ، فالمعاملة مع الله تعالى.

وربما يزعم جاهل أنه لا حاجة لهذا كله وأن الله هو أرحم الراحمين فإنه غفور رحيم ويجعل من ذلك ذريعة ومبرراً له على سوء أفعاله فيقال له:
إن أرحم الراحمين قد أمرنا بأوامر ونهانا عن مَناهٍ وخوَّفنا من عقابه لمن خالف أوامره أو وقع في معصية ولم يتب ، وإن أرحم الراحمين بيّن لنا في كتابه الكريم وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيَّن لنا في أحاديثه الشريفة أن المصرين على معصية الله لهم عقاب وعذاب في القبر وفي برازخ الآخرة وفي جهنم، فلا تتجرأ على معصية الله ولا تتهاون في أوامر الله وابذل في ذلك جهدك ما استطعت، وإذا بدا منك ذنب أو قصرت في عمل فارجع إلى الله واستغفر فإن الله أرحم الراحمين يغفر لك ويرحمك ، قال تعالى:(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) ، وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [1]].

والكيِّس هو العاقل الفطن ومن شأنه أن ينظر في عواقب الأمور فيُعِدَّ عُدَّته ويعمل لمستقبله الذي لا بد من وقوعه وهو ما بعد الموت من حياة برزخية ، وسبيل ذلك أولاً أن يدين نفسه بأن يحاسبها ويقيمها على صراط شريعة الله الذي هدى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ومن حاسب نفسه عرف ما لها وما عليها، فقام بما عليه من واجبات ،وقدم لنفسه أعمالاً يراها ويرى أجرها ونورها إذا صار في الآخرة .

---

[1] المسند ١٦٥٠١

قوله صلى الله عليه وسلم :

[ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة] وما أحوج الإنسان إلى أن ييسر الله عليه في الآخرة والتي يعتبر القبر أول برزخ من برازخها ،ومن نجا من فتنة القبر فقد نجا.

فمن أراد أن ييسر الله عليه أمور دنياه وآخرته فليجعل معاملته مع الخلق بالعفو والسماحة دون غلظة أو شدة أو تدقيق ، فمن الناس مثلاً من يكون مشغول الفكر بأمر ما ويمر عليك ويسلم فتذهب أنت وتزعم أن سلامه لم يكن لائقاً ولم تكن في وجهه تلك البسمة والبشاشة أثناء سلامه وهكذا، ولو أنك علمت ما شغله أو كربه لَعَذَرْتَه، فالأجدر بك إذاً ألا تشدد ولا تدقق وكن مع خلق الله سمحاً ليناً كريماً.

ومن الناس من لا يرى من معاملتك له إلا الخير والإحسان حتى إذا رأى منك زلة أو تقصيراً لسبب ما راح يذم ويقدح وكأنه لم ير منك خيراً قط !! نعم إن هذا تشديد وظلم فأين سماحة المؤمن وأين كرم أخلاقه وسعة عفوه التي رغب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورتب عليها الثواب في الدنيا والآخرة ؟!.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة] أي ومن ستر مسلماً على زلة رآها منه أو سمعها عنه ستره الله في الدنيا والآخرة، وهذا إذا كان المؤمن متستراً بدليل قول الرسول:[ومن ستر] أي صدرت منه وهو مستتر عليها ، فعلى من وجدها منه أن يستر ولا يفضح وإلا فضحه الله تعالى نسأل الله العافية.

وإياك أن ترى في نفسك العصمة والنزاهة من الذنوب والسيئات وتتكلم في هفوات الناس وزلاتهم دون أن تخشى أن يفضحك الله تعالى فأي الناس يخلو من الهفوات والزلات؟ ولربما يوقعك الله في الذنب حتى يفضحك لأنك فضحت فلاناً ولم تستره ، فاحذر سوء عملك واتهم نفسك بالتقصير ولا تكشف عن أحد ستراً ، وسل الله أن يسترك في الدنيا والآخرة.

قوله صلى الله عليه وسلم:[والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] فمن أراد أن يعينه الله تعالى في جميع أموره الدنيوية والأخروية على وجه مستمر دائم من أراد ذلك فليبادر دائماً إلى عون عباد الله المؤمنين ، ومن كان الله في عونه كفاه عن عون غيره إذ إن من أسمائه سبحانه [الكافي] فهو جل وعلا الكافي في عونه والكافي في ستره والكافي في تيسيره والكافي في رزقه وهكذا ، وهو سبحانه الذي يكفي المؤمن ما أهمه من أمور دنياه وآخرته.

واحرص أيها المؤمن أن تكون إعانتك لأخيك المؤمن على أمر شرعي أو أمر دنيوي مباح لا معصية فيه ولا ضرر من ورائه.

ولما أرسل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الأرت رضي الله عنه في سرية وكان لخباب عيال ومال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعين أهله على الشياه ويملأ الأواني مهما كثر عددها لأن الشاة كانت تدر الحليب على خلاف عادتها كل ذلك بسبب بركات الرسول صلى الله عليه وسلم فلما رجع خباب عاد حلب الشاة كما كان. [1]

فلا تتكبر أيها المؤمن وتأبى قضاء حاجة غيرك كشراء متاع له أو إعانته في بعض أموره فقد كان سيد العالمين صلى الله عليه وسلم يقوم بعون المسلمين ويسعى لقضاء حوائجهم.

ولقد كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب الغنم لجيرانه وأهل الحي ، يفعل ذلك بكرة وأصيلاً ، ولما ولي الخلافة قيل : "الآنَ لا يُحْلَبُ لَنَا. فَقَالَ: بَلَى لأَحْلِبَنَّهَا لَكُمْ ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَلا يُغَيِّرَنِي مَا دَخَلْتُ فِيهِ" [2]
وظل مستمراً على فعل الخير مع جيرانه.

---

[1] قال الإمام أحمد في المسند ٢٠١٥٩: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد الفائشي عن بنت لخباب رضي الله عنه قالت :
خرج خباب في سرية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزاً لنا، فكان يحلبها في جفنة لنا فكانت تمتلئ حتى تطفح، قالت: فلما قدم خباب حلبها فعاد حلابها إلى ما كان. اهـ

[2] انظر كتاب التبصرة لابن الجوزي ٤٠٢/١

وقد اشتهر عن سيدنا عمر رضي الله عنه أيام خلافته أنه كان يسعى إلى بيوت الأرامل ويقوم بما يحتجنه ، ولقد رآه بعض الصحابة رضي الله عنهم خرج في إحدى الليالي إلى أطراف المدينة ودخل بيتاً صغيراً فلما أصبح ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟
فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى [1].

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[1] انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٥٣/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: [ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت (وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)]رواه البخاري .

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌ].

رواه أبو داود والترمذي بإسنادٍ لا بأس به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل].

رواه أبو داود والترمذي بإسنادٍ صحيح، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ. اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} روضة زيارة أهل الخير والصلاح وذكر فيها ما يتعلق بزيارة سيدنا موسى سيدنا الخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، ثم أتى على ذكر بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بفضل زيارة أهل الخير والصلاح ومجالستهم، وكان من جملة ما استدل به على ذلك زيارة جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سبب قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام:
[ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟] أن جبريل عليه السلام أبطأ مدة بنزوله بالوحي على سيدنا رسول الله فقيل: إن هذه المدة خمسة عشر يوماً ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل غير ذلك [1]، فلما نزل سأله رسول الله :[ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟] فأوحى الله تعالى لجبريل عليه السلام أن قل: (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً) أي وما كان ربك تاركاً لك يا محمد صلى الله عليه وسلم بل أنت على وصال واتصال.

وجاء في بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام:[ما نزلتَ حتى اشتقتُ إليك ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أَشْوَقَ ولكني مأمور ، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: (وما نتنزل إلا بأمر ربك)[2] .

وهذا لقوة المناسبة بين سيدنا رسول الله وبين جبريل عليه السلام ، فالرسول صلى الله عليه وسلم صاحب النفس الإلهية الطيبة الطاهرة وإن قدسية نفس الرسول صلى الله عليه وسلم تتناسب مع روح القدس جبريل عليه السلام فكان بينهما المحبة والمودة الخاصة.

ويدل هذا أيضاً على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو حقاً رسول الله ، وما هو بساحر ولا بكاهن كما زعم ذلك المعاندون المشركون ، قال سبحانه في الرد عليهم:(هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

---

[1] انظر تفسير القرطبي ١٢٨/١١

[2] قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم

وإن من صفة الساحر الكذب والدجل والافتراء مما يجعله يتناسب ويتجانس مع الشياطين الذين هم أهل الشر والكذب والضلال، فالشياطين تتنزل على كل أفاك أثيم أي على كل كذاب فاجر ، وأنتم يا معشر قريش تعلمون أن محمداً هو الصادق الأمين ولم يبدر منه بادرة سوء من صغره إلى شبابه إلى كبره ، فكيف يُتصور أن تنزل الشياطين على من كان هذا وصف من صفاته ؟

ولا مناسبة تجمع بين الشياطين وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما تأتي الشياطين إلى جنسها وإلى مناسبها في الكذب والدجل ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو منبع الخير والتقى والكمال.

وإن جبريل عليه السلام الذي وصفه الله بأنه روح القدس هو صاحب الروح الطاهرة القدسية العالية ويتناسب أن ينزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين التقي النقي.

قوله تعالى: (وما نتنزل إلا بأمر ربك) أي أن نزول جبريل عليه السلام إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بأمر الله تعالى وبمناسبات وحكم وأحكام عالية، وفي الآية دليل على أن الملائكة أمريون لا يفعلون أمراً من تلقاء أنفسهم وإنما هم كما وصفهم الله تعالى:(ويفعلون ما يؤمرون) أي فلا يفعلون إلا ما أمرهم الله بفعله.

ولا تتوهم من ذلك أنهم في فراغ وبطالة إذا لم يأمرهم الله تعالى بأمر بل إن أوامر الله تعالى لهم دائمة مستمرة إما بأعمال أو أقوال أو تدابير.

وأما أفعال الإنسان فمنها الأمرية ومنها النفسية فإذا قام يصلي مثلاً فهو يفعل ذلك امتثالاً لأوامر الله تعالى ، وكذلك صيامه وتأديته للزكاة وطوافه حول البيت ماشياً كل ذلك امتثال لأوامر الله تعالى ، أما إذا فعل أفعالاً إرضاء لحظ نفسه من الشهوات أو وقع في المحرمات فإن ذلك لا يكون إلا بأمر نفساني منه وليس عن أمر شرعي من الله تعالى.

وأما الملائكة عليهم السلام فقال فيهم سبحانه:(لا يعصون الله ما أمرهم) أي لا يخالفون أوامر الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) أي إن كل أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم إنما هي بأمر الله تعالى لهم ولذلك فهم في مقام العصمة ، فلقد كان جبريل عليه السلام ينزل على سيدنا رسول الله عن أمر من الله تعالى لا عن أمر نفساني ، وقد خص الله الأنبياء والرسل عليهم السلام بأن جعل أفعالهم وأقوالهم عن أمر من الله تعالى ونالوا مقام العصمة أي عصمة الله تعالى لهم عن الخطأ والخطيئة .

وقد يكرم الله تعالى بعض أوليائه وعباده الصالحين ويتولاهم في حركاتهم وسائر شؤوناتهم فلا يتحركون إلا بأمر شرعي ، وليس لشهوات نفوسهم تأثير على أفعالهم أو أقوالهم وهذا لأنهم هم المقربون الذين جعلوا جميع أفعالهم عبادات لله تعالى ولا يتعاطون المباحات لحظوظ نفسية ، وأما الأبرار الذين هم دون المقربين في الرتبة والمقام فيتعاطون المباحات.

فالمؤمنون المقربون لا يأكلون ولا ينامون بشهوة نفسية ، وإنما يقصدون من نومهم وأكلهم وشربهم أن يقووا أبدانهم على عبادة الله وطاعته ، ولأن الله تعالى أمرهم أن يتعاطوا أسباب الحياة ولولا ذلك لما ناموا ولما أكلوا ، فافهم.

وقل لمن زعم أنه بلغ هذه المقامات: إن تصور الشيء ليس كالتحقق به، فقد تتصور أن تملك كذا من المال فهل يعني تصورك لذلك أنك قد ملكت ما تصورته؟ ولو كان كذلك لقلنا لك: ابدأ بِعَدِّ ما عندك من المال الذي تصورته.

وهكذا فإن مقامات العبادة والقرب من الله تعالى هي مقامات تحققية تعبدية وليست مقامات يتصور الإنسان أنه نالها أو يتخيلها في فكره ويظن أنه قد بلغها.

قوله تعالى:(وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أي له علم وملك ما بين أيدينا وما خلفنا ، فله سبحانه العلم المحيط بما مضى وبما هو آت وبما هو عليه الحال ، فقوله تعالى مخبراً عن جبريل عليه السلام : (له ما بين أيدينا) أي مما هو سيأتي علينا (وما خلفنا) أي من أمور مضت وحصلنا عليها (وما بين ذلك) أي في الحال الذي نحن فيه فعلم ذلك كله لله سبحانه وتعالى.

(وما كان ربك نسيّاً) أي فلا يغيب شيء عن علمه جل وعلا وإنما كتب الأشياء ومقاديرها في اللوح المحفوظ وغيره كتب ذلك للإعلام والإحكام ليطلع ملائكته والمقربين من عباده على أنه سبحانه عليم حكيم.

وهذا هو شأن ملك الملوك جل وعلا أن يعرّف خلقه بما كان وبما سيكون على حسب حكمته وعلمه سبحانه ، وينزّل جل وعلا البلاغات الشرعية والبلاغات التكوينية كما قال تعالى:(هذا بلاغ للناس) .

وأما قوله سبحانه في الكافرين (نسوا الله فنسيهم) وقوله عز من قائل في الحديث القدسي: (فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي)[1] فالمراد من النسيان هنا نسيان الترك، فنقول : نسي الشيء إذا تركه ، يعني عامله معاملة المنسِيِّ ، فهذا الكافر لما ترك أوامر الله تعالى وأعرض عنه تركه الله تعالى في العذاب.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [لا تصاحب إلا مؤمناً] وهي الصحبة التي يتخللها المودة والتزاور واللقاء والمحبة والصداقة ، فإن هذه الصحبة ينبغي أن لا تكون إلا للمؤمنين مع بعضهم البعض ، ولا ينافي ذلك أن تعامل الفاجر والفاسق معاملة خاصة لبيع أو شراء ونحو هذا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يأكل طعامك إلا تقي] أي اجعل ولائمك وطعامك للأتقياء حتى تنال بذلك الثواب من الله تعالى بأن أكرمت الأتقياء وأعَنْتَهم بإطعامك لهم على طاعة الله وعبادته ، وأما إذا قصدك فاسق أو كافر وهو ملهوف على الطعام والشراب فيجب عليك حينئذ إطعامه .

فقوله صلى الله عليه وسلم:[ولا يأكل طعامك إلا تقي] أي من باب الدعوة إلى الطعام لوليمة أو نحوها .

وإن للمؤاكلة سرياناً روحياً قلبياً بين الآكلين ، فمن آكل وأكل مع التقي نال من خيره وبره حتى قالوا رضي الله عنهم: (المؤاكلة مع الصالحين رضاع) أي يسري خيرهم وبرهم إلى من أكل معهم كما يسري الحليب والغذاء للرضيع ممن يرضعه.

---

[1] الحديث في صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق وفيه قال صلى الله عليه وسلم: [فَيَلْقَى الْعَبْدَ – أي فيلقى الله العبد – [فَيَقُولُ أَيْ فُلْ] – أي فلان – [أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فَيَقُولُ: بَلَى ، قَالَ: فَيَقُولُ : أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ ؟ فَيَقُولُ : لَا ، فَيَقُولُ : فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي] .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا تصاحب إلا مؤمناً) وذلك لأن العدوى في الأرواح أقوى منها في الأشباح -أي الأجساد - ، وقد أثبت المشرع الحكيم أن للعدوى تأثيراً لا من ذاتها وإنما بأمر الله سبحانه ، فهي سبب كباقي الأسباب التي نصبها الله تعالى ، وليس للأسباب تأثير من ذاتها بل إن المسبب فيها والمؤثر فيها هو الله تعالى الذي إن شاء أعملها وان شاء أهملها - أي لم يُعمِلها- .

فقد يسري إليك ضرر من جليس السوء وصحبته وأنت لا تشعر بسريانه إليك إلا بعد حين كما يسري الداء الظاهر إلى من جالس مريضاً بداء مُعْد وهو لا يشعر أن الداء قد سرى إليه إلا بعد أن يستحكم الداء فيه ويظهر أثر المرض عليه .

وقد ضرب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في تأثر الجليس بمن يجالس فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

[مثل الجليس الصالح والجليس السوء] - بفتح السين ، وفي رواية: بضمها - [1] [كحامل المسك ونافخ الكِير ، فحامل المسك إما أن يحذيك[2]وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة] أي فالنفع و الفائدة حاصلة لك في جميع الأحوال [ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة] [3]فالضرر حاصل منه لا محالة.

ومن هنا يعرف العاقل فضل ذكر الله تعالى ويفهم قدر ذلك إذ إنه سبحانه جليس من ذكره بدليل الحديث القدسي الذي يقول فيه سبحانه:
[أنا جليس من ذكرني] [4]، وإن العبد لما يصلي فهو في ذِكر الله تعالى كما قال تعالى:(وأقم الصلاة لذكري) وقال جل وعلا :(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذِكر الله أكبر) .

---

[1] السوء بفتح السين مصدر وبضمها اسم مصدر.
قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠ /٣٥١: (السوء) بفتح السين ويُضمّ.
[2] يعطيك
[3] انظر صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد
[4] انظره في مصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي ومصنف عبد الرزاق وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة للديلمي وأبي الشيخ في الثواب

وهناك أنواع للذكر من التسبيح والتحميد والتهليل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء والاستغفار، وأفضل الأذكار الإلهية القولية تلاوة القرآن الكريم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

[فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه][1].

وفي الحديث لما تمر الملائكة على مجالس ذكر الله تعالى ويرفعون أمرهم لله تعالى يقول سبحانه: [أُشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول ملَك : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول جل وعلا : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم][2].

أي هم جلساء الحق لا يشقى من جالسهم من الخلق بل يهنأ ويسعد ، وما أعظمها من سعادة أن غفر الله له لأنه جليس مَن هم في حضرة رب العالمين .

فقوله صلى الله عليه وسلم:[لا تصاحب إلا مؤمناً] أي كما قالوا: "الصاحب ساحب " أي يسحب صاحبه ، فاعرف من تصاحب حتى تعرف إلى أين ستُسحب ..إلى السعادة أم إلى الشقاء .

كما أن المجالسة توجب المجانسة فاعرف جنس من تجالس لأنك إن جالسته ستصير من جنسه وصفتك من صفاته ، وإن علم النفس على الحقيقة لا يؤخذ إلا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء ببيان أمراض النفوس وبيان طرق شفائها وطهارتها و زكاتها ، وبين تأثر النفس بمن تصاحب وبمن تجالس ، وسريان عدوى الأرواح في المتجالسين ، وبيَّن خطورة ذلك وأرشد إلى مصاحبة ومجالسة الصالحين حتى يتأثر بهم المؤمن وينال من خيرهم وصلاحهم ، وهكذا فإن كل ذلك هو من جملة ما أوحاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعلّمه إياه، ولذلك كان من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يزكيهم كما قال تعالى:(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).
والتزكية تعني التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل والكمالات، وهذا ما تجده مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

[1] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن
[2] انظر صحيح البخاري كتاب الدعوات

قول الرسول صلى الله عليه وسلم :[الرجل] - وفي رواية : [المرء][1]- [على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل] أي أن المرء يتأثر ويتخلق بعادات وأخلاق صاحبه فلينظر كل عاقل من يصاحب ، أي فلا تصحب أيها العاقل إلا أهل الايمان والكمال حتى تكون على صفتهم وأخلاقهم .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

---

[1] كما في المسند ٧٦٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة:

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:[المرء مع من أحب]متفقٌ عليه.

وفي رواية قال: [قيل للنبي صلى الله عليه وسلم:

الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال: المرء مع من أحب].

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: [متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها ؟ قال: حب الله ورسوله قال: أنت مع من أحببت].
متفقٌ عليه، وهذا لفظ مسلمٍ.

وفي روايةٍ لهما: "ما أعددت لها من كثير صومٍ ولا صلاةٍ ولا صدقةٍ ولكني أحب الله ورسوله".

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: [جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجلٍ أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب] .

متفقٌ عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف] رواه مسلم. اهـ

إن قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [المرء مع من أحب] قد بلغ حد التواتر في النقل فقد جاء من عدة طرق منها ما كان عن أبي موسى الأشعري ومنها عن أنس وعن أبي الدرداء رضي الله عنهم [1].

وقوله صلى الله عليه وسلم :[المرء مع من أحب] ظاهره البشارة والطمأنينة لمن أحب الله ورسوله وأحب أولياء الله والصالحين من عباده ولكن في باطنه التحذير والإنذار لمن شغل قلبه بمحبة من لا يحبهم الله تعالى ولا يحبهم رسوله صلى الله عليه وسلم وهم الظالمون والأشقياء ، وإن انشغال القلب بمحبة الله ورسوله وأحبابه دليل على عمارة هذا القلب بالإيمان ، والعكس صحيح كذلك.

ولا بد للمحبة من سبب ، والسبب هو المناسبة ، والمناسبة هي علة الضم والجمع ، فمن شأن المؤمنين أن يحب بعضهم بعضاً لأن أخوة الإيمان تجمع بينهم ، فالمناسبة والسبب الذي جعل المؤمنين يحب بعضهم بعضاً هو الإيمان بالله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول سبحانه:(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أي بينهم ولاء ومحبة ونصح ومناصرة (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وكذلك المنافقون فإن النفاق هو سبب وعلة اجتماعهم إلى بعضهم ومحبتهم بعضهم ، قال تعالى: (والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) .

---

[1] انظر كتاب تدريب الراوي للحافظ السيوطي ٦٣١/٢ فقد صرح أن هذا الحديث متواتر.

فلا بد للجمع بين القلوب من مناسبات فإذا رأيت قلبك محباً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحباً لأحباب الله تعالى فاعلم أن هناك مناسبة بين قلبك وبين قلوب الصالحين من عباد الله حتى مال قلبك إليهم وأحببتهم، وإذا رأيت قلبك يحب فلاناً المعروف بنفاقه أو ظلمه أو فسقه فابحث في نفسك وقلبك عن السبب الذي جعلك تحبه، وهل أنت أحببته لصفة معينة فيه؟ وهل تلك الصفة مَرْضيَّة عند الله تعالى وعند رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أم لا؟

ففتش في نفسك وحاسبها عن سبب تلك المحبة فربما كنت صاحب هوى وهو صاحب أهواء فأحببته لذلك، وربما كان في قلبه زيغ اتفق مع زيغ في قلبك فأحببته، وهكذا عليك أن تحترس وتبحث عن أسباب ميل قلبك لفلان وفلان.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم:[المرء مع من أحب] أي معه في الدنيا بالمعية القلبية والروحية والفكرية فمن كان محباً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المحبة فإن قلبه مع رسول الله وروحَه وعقله وفكره كذلك ، ومن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه فإن قلبه يستسلم لما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من عقيدة إيمانية قلبية ، ومن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفكره وعقله يستسلم عقله لما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أعمال وأقوال فيتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلزم من المحبة إذاً الاستسلام للمحبوب واتباعه .

ومن تحقق بهذه المعية في الدنيا فإنه بمعيته صلى الله عليه وسلم في برازخ الآخرة كلها اجتماعاً والتقاء ومجالسة حتى يدخل الجنة وينال مرافقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سألها أكابر الصحابة والأولياء رضي الله عنهم أجمعين.

وأما شواهد ودلائل صدق المحبة فأعظمها السمع والطاعة للمحبوب واتباع المحبوب وتعظيمه وتوقيره والإكثار من ذكره.

أما السمع والطاعة للمحبوب فهو أن تصغي إلى كلام المحبوب وأن تطيعه فيما يأمر به بدافع المحبة والرضا لا الحرج والإكراه، كما لو كان عندك ولد وحيد فإنك تسمع كلامه وتنفذ ما يطلبه منك بدافع من المحبة والحنان ، وهكذا - وهذا المثال لتقريب المعنى للذهن - لما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المحبوب الأعظم فكل مؤمن صادق وجب عليه السمع والطاعة له قال تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

وأما اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهو دليل محبة الله تعالى ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ، وقال سبحانه:(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيغ عنه][1].

وأما تعظيم المحبوب وتوقيره والأدب معه فقد قال تعالى:(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقره) أي تُعَظِّموه وتُجِلُّوه، والضمير هنا يعود إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وتُسبِّحوه) أي تسبحوا الله تعالى بكرة وأصيلاً.

[1] قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار، وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: "ولا يزيغ عنه".

وقد قال جل وعلا في بيان مجامع الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وانظر في مواقف الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآيات ، وكيف كان أدبهم معه صلى الله عليه وسلم وكيف كان تعظيمهم وتوقيرهم له صلى الله عليه وسلم.

وأما الإكثار من ذكر المحبوب فهذا دليل على صدق محبته ، ألا ترى إلى أهل الدنيا كيف تتردد دائماً على ألسنتهم تجاراتها وأموالها وزخارفها ؟! وأما المؤمنون الذين توجهت قلوبهم إلى محبة الله تعالى ورسوله فتراهم يكثرون من ذكر الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ولا يغفلون عن أداء واجب الله عليهم، قال تعالى:(رجال لا تلهيهم تجارة) أي مهما عظمت وكبرت لأن التجارة الصغيرة لا تلهي صاحبها أصلاً (ولا بيع عن ذكر الله) لأنه هو محبوبهم الأعظم فكيف يغفلون عنه؟!

(وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً) أي لأنهم يخافون يوماً فهي جملة تعليلية لما سبق (تتقلب فيه القلوب والأبصار) .

واعلم أن المحب لا يلهو ولا يغفل عن محبوبه أبداً بل هو معه بقلبه وروحه وفكره وعقله إذ إن العبرة لمعية القلوب والأرواح لا لمعية الأجساد فقط ، فكم يجالس الإنسان غيره بجسمه ولكن قلبه غائب كمن جالس ظالماً لضرورة فهو معه بجسمه ولكن القلوب متباعدة وأنى لها أن تتلاقى ؟!

فالمؤمن المحب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تراه يكثر من ذكره ويلتزم جانب الأدب معه والتعظيم والتوقير له صلى الله عليه وسلم، لأنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه مشاهدة ومحبة وميلاً وتعشقاً، وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم بجسمه اتباعاً في الأعمال والأقوال والأخلاق.

ولما سئل سيدنا علي [1] كرم الله وجهه: "كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ"[2].

ولما أسر المشركون الصحابي الجليل زيد بن الدَّثِنَّة رضي الله عنه وقدموه للقتل قالوا له: "أتحب أن محمداً مكانك، وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً صلى الله عليه وسلم في مكانه يصيبه شوكة تؤذيه ، وأني في أهلي".[3]

يعني لأن يُقتَل هو أهون عليه من أن يصاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشوكة في رجله الشريفة الطاهرة.

ولا يحملنك الجهل أو الحمق أن تصف أولئك الذين يكثرون من الصلاة على النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وذكر شمائله الشريفة وخصائصه المجيدة وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم ، لا يحملنك جهلك على أن تصفهم بأنهم بلغوا حد المبالغة في حبه وتعظيمه صلى الله عليه وسلم فهم لم يبلغوا الحد الواجب عليهم في حبه والأدب معه صلى الله عليه وسلم حتى تصفهم بالمبالغة!

ولو أنك اطلعت على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حبهم وتعظيمهم وتوقيرهم لجنابه الشريف لوصفت كل من أتى بعدهم بالتقصير في حبه والأدب معه صلى الله عليه وسلم .

---

[1] يعني أن التابعين سألوا سيدنا علياً رضي الله عنه: كيف كان حبكم؟ - أي يا معشر الصحابة - لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

[2] انظر الشفا للقاضي عياض ٢٢/٢

[3] انظر معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٢٤٧/٨

وأنى لك أيها المؤمن أن تصل إلى مقام الصحابة الذين تفانَوا في حب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره، ولم يكن أحد منهم يرى نفسه أنه يبالغ في ذلك، بل كان واحدهم يرى نفسه مقصراً في حب رسول الله والأدب معه صلى الله عليه وسلم ، وكلهم يخافون أن يصدر منهم فعل أو قول فيه شيء من إساءة الأدب معه صلى الله عليه وسلم ،لا سيما أن الوعيد الإلهي جاء بإحباط أعمال من رفع صوته فوق صوت النبي فما بالك بمن قصَّر في الأدب معه صلى الله عليه وسلم ؟!

ومن لوازم محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحب المؤمن أهل بيته الكرام عليهم السلام ويحب أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ويحب بلده ومسجده وقبره الشريف صلى الله عليه وسلم.

وقد جعل صلى الله عليه وسلم حب أصحابه الكرام رضي الله عنهم علامة على صحة الإيمان فقال: [آية الإيمان حب الأنصار] [1] .. الحديث.

ولما كانت المحبة من أعظم أعمال القلوب وهي مبنية على مناسبات قلبية متعلقة بالمحبوب إيماناً به وتعظيماً له وتكريماً واتباعاً وأدباً لهذا كله جاء الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم وفي رواية: [ولما يلحق بهم][2]أي بالعمل الصالح فهو يبذل جهده في اللحاق بمحبوبه ولكن لا يستطيع ذلك فهل تنفعه محبته ؟
جاء جواب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانه لذلك بقوله: [المرء مع من أحب] أي وإن لم يعمل مثل عمل المحبوب ما دام يبذل جهده في اتباع محبوبه صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجمعك عملك مع أحبابك الصالحين[3]فإن حبك لهم يجمعك بهم .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان
[2] صحيح البخاري كتاب الأدب
[3] لعجزك أن تعمل مثلهم

وأما من ادعى محبة الصالحين مع استطاعته أن يعمل ولكنه تباطأ وتكاسل فهو كاذب في محبته وهو يشتهي المحبة ولم يتذوقها بعد .

اللهم احشرنا في زمرة عبادك الصالحين المحبين لسيد المرسلين تحت لوائه صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع : المجلس الأول في هذا الباب

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الحب في الله تعالى والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه، وماذا يقول له إذا أعلمه:

قال الله تعالى:(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً).

وقال تعالى:(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار]متفق عليه.اهـ

لقد استدل الإمام النووي رضي الله عنه بهذه الآية (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) استدل بها على صحبة الصحابة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم بعضهم وهذا قوله تعالى:(رحماء بينهم) أي يرحم بعضهم بعضاً كما ترحم الوالدة ولدها، وهذا بسبب محبتهم بعضهم محبة إيمانية لله وفي الله جل وعلا.

قوله تعالى: (محمد رسول الله) وفي هذا إعلام وإعلان من الله تعالى لخلقه بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب المعروف عند أهل الأرض وعند أهل السماء إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما هو بِرَجُلٍ يطلب الملك أو الجاه أو المال، بل هو رسول الله أرسله الله تعالى إلى خلقه كافة هادياً لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله تعالى:(محمد رسول الله) ذكر سبحانه رسوله الكريم باسمه لأن المقام يقتضي ذلك إذ هو في سياق التعريف بهذا النبي الكريم وأن محمداً هو رسول الله تعالى، وأما في سياق ذكر الله تعالى لمقامات رسول الله وفضائله فقد جاءت الخطابات الإلهية لرسول الله بألفاظ التكريم لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (يا أيها الرسول) (يا أيها المزمل) (يا أيها المدثر) فناداه وخاطبه سبحانه بذكر مقاماته ومراتبه وصفاته صلى الله عليه وسلم ولم يخاطبه باسمه كما خاطب ونادى غيره من الرسل فقال جل وعلا:

(يا إبراهيم أعرض عن هذا) (يا نوح إنه ليس من أهلك)

(يا عيسى إني متوفيك) (يا زكريا إنا نبشرك بغلام) (يا موسى لا تخف) .

وكذلك ذكَر سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بمقاماته ومراتبه في سياق الإخبار عن فضائله ومناقبه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ، وقوله جل وعلا : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية.

ففي الآية:(محمد رسول الله) ذكَر سبحانه رسوله الكريم باسمه العَلَم لأن المقام يقتضي ذلك حتى يعرف الناس أن محمداً هو رسول الله إليهم ، فهو نبي الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل مقام يقتضي مقالاً .

وأما معنى كلمة (محمد)- وهو الاسم الذي سمى الله به رسوله صلى الله عليه وسلم- فهو كثير المحمودية عند أهل السماء والأرض ، فقد نقول عن فلان إنه محمود السيرة والخصال والشمائل لكن الأبلغ والأقوى من كلمة "محمود " كلمة " محمد " أي كثير المحمودية ، فهو صلى الله عليه وسلم كثير المحمودية على خصائصه المجيدة وخصاله الكريمة وأفعاله الرشيدة وهكذا حمدته وتحمده أهل السماء والأرض حتى أعداؤه الكفار كانوا يحمدونه وسيحمدونه في الآخرة أيضاً لما ينقذهم من أهوال الموقف ويقوم صلى الله عليه وسلم للشفاعة العظمى.

قوله تعالى:(محمد رسول الله) أي بالرسالة الجامعة لجميع رسالات من قبله من المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، الرسالة العامة إلى جميع العالمين إلى يوم الدين ، ولا نبي ولا رسول بعده صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى:(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أي أن صفة أصحابه الذين معه أنهم أشداء على الكفار إذا هم حاربوهم وآذوهم وعادوهم، رحماء بينهم لأنهم يحبون بعضهم بعضاً فيرحم بعضهم بعضاً ، فمن أراد أن يعرف صفات أصحاب رسول الله الذين نشؤوا على تعاليم وتوجيهات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر ذلك سبحانه في كتابه الكريم ليكون ذلك منهاجاً لمن بعدهم من المؤمنين.

وبعد أن ذكر سبحانه صفتهم فيما بينهم ذكر جانباً من عبادتهم وحالهم مع الله تعالى فقال جل وعلا:
(تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً).

فهم لكثرة صلواتهم ونوافلهم إذا نظرت إليهم أيها الناظر رأيتهم ما بين راكع وساجد، وغايتهم من ذلك ومقصدهم نيل رضوان الله تعالى وفضله سبحانه، ولا يريدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة ولا ظهوراً بين الناس فعبادتهم لله تعالى من أجل الله سبحانه، ومن أجل أن ينالوا رضوانه وفضله جل وعلا، فسبحان من لا مانع لعطائه جل وعلا.

وفي قوله تعالى:(يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) يشهد جل وعلا للصحابة رضي الله عنهم بالصدق والإخلاص في أعمالهم وعبادتهم ويمدحهم سبحانه بذلك.

وإن اعتبار الأعمال عند الله تعالى هو الإخلاص بها له جل وعلا، وعمل قليل يخلص فيه العبد لله تعالى خير له من عمل كثير لا إخلاص فيه ، وقد بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ رضي الله عنه : [أخلص دينك يكفك القليل من العمل][1].

[1] عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ويكفي ما جرى على إبليس[1] من الطرد واللعنة عبرة وعظة لكل إنسان عاقل ، إذ إن إبليس كان يعبد الله بين صفوف الملائكة في السماء الأولى وبلغ في عبادته مبلغاً كبيراً إلا أنه كان يفتقر إلى الإخلاص والصدق وكان معجباً بنفسه مغروراً بعبادته فلما امتحن بالسجود لآدم عليه السلام صدَّه غروره وكبرياؤه وامتنع عن السجود معترضاً على الله تعالى ومنتقداً أمر الله في ذلك فكانت عاقبته الطرد واللعنة، أعاذنا الله من شروره ووساوسه.

ولو كان إبليس مخلصاً لله في عبادته السابقة لحفظه الله تعالى من الزيغ والضلال والامتحان، نسأل الله الحفظ والوقاية.

قوله تعالى:(سيماهم في وجوههم من أثر السجود) أي أن النور والسمت الحسن يظهر على وجوههم بسبب عباداتهم وسجودهم لله تعالى ، لأن من أخلص العبادة له تعالى ألبسه الله حلة نورانية وصبغه بصبغة الإيمان والنور والبهاء ، وهذا ما يشعر به كل إنسان، فإن هو عصى الله تكدر وأظلم وجهه، وإن هو تاب وأناب وسلك طريق العبادة انشرح صدره واستنار وجهه.

وقد قال سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه:

" ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلَتات لسانه " [2].

فمن واظب على عمل لا بد أن يظهر الله أثر ذلك العمل على وجهه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

---

[1] وقد أمره الله أن يسجد لآدم عليه السلام كما أمر الملائكة بذلك فقال تعالى: (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أمَره أيضاً.

[2] انظر كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح ١٧٧/١

قوله تعالى: (ذلك مثلهم في التوراة) أي أن هذا هو وصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وهو الوصف الذي وصفهم الله به في التوراة التي أنزلها على سيدنا موسى عليه السلام ، وأما وصفهم الذي ذكرهم الله به في الإنجيل فقد قال تعالى:(ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطْأَهُ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) أي كزرع أخرج فروعه فآزره أي قوي هذا الزرع بفروعه فاستغلظ أي اشتد عزمها فاستوى على سوقه أي قويت حتى قامت وامتدت سوقُها - جمع ساق - حتى صارت تعجب الزُّرَّاع.

يعني أن أصحاب رسول الله هم فروعه صلى الله عليه وسلم وهو الذي أمدَّهم حتى يقووا واشتد عزمهم به صلى الله عليه وسلم فهم فروعه الذين استمدوا منه حتى صاروا رجالاً أقوياء وحملوا راية الإسلام ، وكفى بهذا الوصف فضلاً وتكريماً لأصحاب رسول الله أن الله وصفهم بأنهم فروع وزرع رسول الله الذين استمدوا منه وتقووا به حتى نهضوا واشتد عزمهم .

ومن هذا يدرك العاقل فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن مقامهم مقام كبير لا يناله أحد مهما عمل واجتهد، إذ إن فضل الصحابة لا ينال إلا بالصحبة، فهم صحبوا خير خلق الله صلى الله عليه وسلم فصاروا خير خلق الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما كثر أصحاب رسول الله زاد غيظ الكفار منهم وهذا معنى قوله تعالى : (ليغيظ بهم الكفار) .

قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) (مِن) في قوله تعالى (منهم) بيانية وليست للتبعيض، ويؤتى بها للبيان وشدة التأكيد على أن أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

ومن الشواهد القرآنية على (مِن) التي يؤتى بها للبيان قوله تعالى:
(فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فلو كانت (مِن) للتبعيض لكانت بعض الأوثان ليست رجساً !! وهذا محال .

وكذا قوله تعالى في زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) مع أنهن كلهن مؤمنات محسنات رضي الله عنهن .

وقال تعالى في صفة الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومحبتهم لبعضهم (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) فقد ذكر سبحانه في سورة الحشر المهاجرين أولاً وأثنى عليهم ثم ذكر الأنصار وهم أهل المدينة الذين وصفهم بقوله جل وعلا :(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) أي تمكنوا وأقاموا في المدينة من قبل أن يهاجر إليها المهاجرون وأهل مكة فهم يحبون من هاجر إليها من المهاجرين محبة إيمانية صادقة.

وقوله تعالى:(تبوءوا الدار) أي الدار المعروفة التي هي أفضل دار وأكرم دار لأن شرف الدور على شرف من دار فيها ، فما بالك بدار سيدنا رسول الله وهي المدينة المنورة بأنوار الرسول صلى الله عليه وسلم ؟!

وقوله تعالى (تبوءوا الدار والإيمان) يقال: تبوأ المكان إذا اتخذ المكان مباء له أي مقاماً له، فهؤلاء تبوءوا بأجسادهم الدار المعروفة وهي بلدة النبي صلى الله عليه وسلم، وتبوءوا بقلوبهم وأرواحهم الإيمان بالله تعالى ورسوله فأجسادهم أقامت في المدينة المنورة وقلوبهم أقامت في الإيمان بالله ورسوله ولم تمِل أو تحد عنه بل هي في رسوخ وتمكن وازدياد في الإيمان.

وقوله جل وعلا :(تبوءوا الدار والإيمان) يعني ونالوا ثمرات تحققهم بالإيمان وهي الإحسان على مراتبه ، وإن إحسان كل مؤمن على قدر إيمانه فكلما ارتقى في مقامات الإيمان علا في مقامات الإحسان.

قوله تعالى:(يحبون من هاجر إليهم) فلقد أحب الأنصار المهاجرين محبة إيمانية في الله ولله تعالى، لا لأموالهم إذ إنهم تركوا أموالهم وهاجروا ، ولا لأغراض دنيوية أخرى بل لأنهم مؤمنون هاجروا في سبيل الله جل وعلا، وهذا هو الحب النافع وهو الحب الذي سببه الإيمان بالله ورسوله ، وأما إذا كانت المحبة لها سبب غير ذلك فهي محبة مذمومة مسؤول عنها صاحبها وهي محبة ستنقلب إلى بغض وعداوة يوم القيامة كما قال تعالى:(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) .

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل المحبة في الله :

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان]- أي ومن لم تكن فيه لا يجد حلاوة الإيمان ، فحلاوة الإيمان أمر موجود ثابت حقيقي لكن لا يجده ويتذوقه إلا من تحقق بهذه الصفات الثلاثة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها يحصل الإنسان حاسة تذوق حلاوة الإيمان فيتذوقها.

[أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] .

ولا تظهر محبتك الصادقة لشيء إلا إذا تعارضت رغبات المحبوبين عندك ، فمثلاً قد تعارض نفسك صلاة قيام الليل مع أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب صلاة الليل وقيامه، فإذا أطعت نفسك وعملت بهواها وعدلت عن قيام الليل فقد قدمت ما تحب نفسك على ما يحب رسول الله وكانت عندئذ محبتك لرسول الله ناقصة ، وقس على ذلك سائر ما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من أحكام وأوامر ومَناهٍ فانظر في موقفك منها حتى تعرف نفسك هل أنت تحب الله ورسوله محبة صادقة أم هي ناقصة أم هي مجرد دعوى ؟

ونسأل الله تعالى من فضله أن يحققنا بالمحبة الصادقة لله ورسوله بلا محنة ولا ابتلاء .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الحب في الله تعالى والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه ، وماذا يقول له إذا أعلمه:

قال الله تعالى:(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً).

وقال تعالى: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] متفق عليه .اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه في جملة رياض الصالحين روضة الحب في الله تعالى، والتي لا بد للمؤمن الذي يسلك طريق الصلاح الخاص أن يتحقق بها حتى يتم له صلاحه، وأما دعوى الصلاح دون التحقق بهذه الرياض فذلك من الصلاح العام وليس من الصلاح الخاص الذي يصلح به صاحبه للتحقق بمراتب القرب من حضرة رب العالمين.

وذَكَرَ الآيات والأحاديث الدالة على فضل محبة الله تعالى ، فذكر أولاً ما يتعلق بتحابب الصحابة رضي الله عنهم، وقد أخبر عنهم سبحانه أنهم يحب بعضهم بعضاً فقال تعالى:(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) أي أن الأنصار الذين تبوءوا الدار وهي المدينة التي هي دار الدُّور وأشرف المنازل والبقاع وهي أشرف دار لأنها دار فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنارت بأنواره الشريفة فالأنصار رضي الله عنهم تبوءوا الدار بأجسادهم وتبوءوا الإيمان بقلوبهم فهم مقيمون على الإيمان ، (يحبون من هاجر إليهم) فالأنصار يحبون المهاجرين في الله ولله جل وعلا ، فلم يحبوهم لمالهم لأن المهاجرين هاجروا حباً في الله ورسوله ، وقد جردهم المشركون من أموالهم.

ثم ذكر حديث سيدنا رسول الله الذي بين فيه صلى الله عليه وسلم الأصول الثلاثة التي من تحقق بها وجد حلاوة الايمان فقال صلى الله عليه وسلم:[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان] فمن تحقق بهذه الأصول صار عنده أداة ذوق يتذوق بها حلاوة الإيمان ، ومن لم يتحقق بها فقد فَقَدَ أداة الذوق التي يتذوق بها حلاوة الإيمان ، وهذا لأنه لا بد لكل ذوق من أداة وأسباب .

قوله صلى الله عليه وسلم:[وجد بهن حلاوة الإيمان] أي حلاوة الإيمان الاعتقادي بالله جل وعلا والإيمان العملي كالصلوات والعبادات والإيمان القولي كالتسبيح والتحميد والكلم الطيب والإيمان الخُلقي والأدبي كالحياء وهو التخلق بالأخلاق الحسنة الفاضلة كالحلم والكرم والشجاعة.

قوله صلى الله عليه وسلم:[أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار].

وقال عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام:[ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً] [1].

فقوله عليه الصلاة وأزكى السلام:[أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما] أي أن تسيطر محبة الله ورسوله على القلب وتكون فوق محبة كل محبوب، فوق محبة الوالد والولد والزوج والمال والدنيا وما فيها.

وإن السبب الذي يحمل المؤمن على المحبة هو الكمال والنوال فإذا كنت تحب فلاناً لكماله أي لأخلاقه العظيمة وسجاياه اللطيفة فإن الذي أعطاه ذلك وخلق فيه ذلك هو الله رب العالمين المتصف بالكمالات المطلقة والمحاسن المطلقة على وجه لا يتناهى .

وإذا كنت تحب فلاناً لجماله وحسنه فإن الله تعالى هو الذي أعطاه ذلك وخلق فيه الجمال والحسن، وهو سبحانه متصف بالجمال المطلق فيجب أن تكون محبتك له جل وعلا أكبر وأعظم.

وإذا كنت تحب فلاناً لنواله - أي كرمه وسخائه وجوده - فإن الله تعالى الذي خلقه أعطاه ذلك، وهو سبحانه الكريم الجواد المنعِم على عباده بالآلاء والنعم، فيجب أن تكون محبتك له جل وعلا أكبر وأعظم ، بل يجب أن تكون محبتك لله تبارك وتعالى محبة عبد لسيده ومخلوق لخالقه ومربوب لرب يربيه وينعم عليه ، ويجب أن تكون محبتك له تعالى محبة لا يشاركه فيها أحد جل وعلا.

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة

ولقد اختص الله نبينا وسيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من سائر العالمين وفضَّله عليهم واختاره رسولاً بالرسالات الجامعة والخاتمة لجميع النبوات والرسالات، وخصه بالمقامات العالية الفردانية، وأفاض عليه من العلوم والمعارف والأسرار والأنوار الإلهية ما لا يعلمه أحد من خلق الله تعالى، كما أفاض عليه الكمالات والمحاسن بأنواعها فكان صلى الله عليه وسلم عظيماً في ذاته الشريفة وأخلاقه وشؤونه وسيرته العطرة ،حريصاً على هداية أمته وسعادتها في الدنيا والآخرة ، فيجب على المؤمن العاقل أن يكون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من خلق الله كلهم.

وكلما ازداد الإنسان معرفة بالله تعالى وكمالاته التي لا تتناهى زاد حبه لله تعالى، وكلما ازداد الإنسان معرفة واطلاعاً على أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجاياه زادت محبته له صلى الله عليه وسلم وهذا واجب كل مؤمن كي يكمل إيمانه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم:[أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم]-أي يمدكم- [وأحبوني لحب الله]- أي بسبب حب الله لي – [وأحبوا آل بيتي لحبي][1].

ومن زعم أن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وتراه يخالف ما جاء عن الله ورسوله فهو كاذب في دعواه لأن المحبة تحقق وانصياع وليست مجرد كلام ودعاوى، ومن علامة صدق المحبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم الاتباع، مع أنه قد يقع المؤمن في بعض المعاصي إلا أنه لا يصر عليها بل يندم ويتوب، قال تعالى:(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب المناقب والحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما

والمعنى: قل لهم يا رسول الله : [إن كان أحد من هذه المرغوبات والمحبوبات الدنيوية من ولد ومال وزوجة وتجارة ومسكن أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فأنتم عندئذ فاسقون وانتظروا أمر الله تعالى بالعذاب، وذلك لأنكم آثرتم رغباتكم وتجارتكم ومحبوباتكم الدنيوية الفانية وآثرتم شهوتكم النفسية الدَّنِيَّة على حب الله ورسوله الذي من تحقق به - أي بالحب - نال الخير كله، خير الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة].

فمن تعارضت رغبات نفسه وشهواته مع ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وآثرها وقدمها عليه فهناك نقص في إيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث[لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين][1].

وقال صلى الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيغ عنه][2]والزيغ هو الميل.

قوله صلى الله عليه وسلم:[وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله] أي أن يحب المؤمن أخاه المؤمن حباً في الله ولأجل الله تعالى،لأن المؤمن بالله محبته لله جل وعلا تحمله على محبة كل من آمن بالله وأحب الله، فيجب أن تكون محبة المؤمنين بعضهم محبة إيمانية ومحبة نصح وإخاء لا محبة قائمة على أغراض شخصية أو منافع دنيوية.

قوله صلى الله عليه وسلم:[وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] أي أن دليل الإيمان الصادق لدى المؤمن أن يكره الكفر وما يجر إليه من المعاصي كراهية حقيقية كما يكره أن يقذف في النار كراهية فطرية جِبِلِّية.

---

[1] رواه الشيخان والنسائي وأحمد - والرواية له - عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

[2] قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: ولا يزيغ عنه

ولو أن أهل الأرض كلهم اجتمعوا على أن يقنعوك أن تمد يدك إلى النار فتحرقها لما أذعنت لهم بسبب نفرتك وكراهية طبعك للنار هذا إن كنت عاقلاً، أما إذا كنت أحمق فلربما أقنعوك [1]أن تحرق يدك بالنار مقابل شيء من المال ثم جعلوا يضحكون منك.

واعلم أيها العاقل أن حلاوة الإيمان في القلب أقوى وألذ وأطيب من حلاوة اللسان ،لأن الإنسان لا يتذوق الحلاوة إلا ببعض الأطعمة حين تمس لسانه ، وتزول تلك الحلاوة لما يبتلعها فهي جزئية مؤقتة ،وأما حلاوة الإيمان فيجد المؤمن حلاوتها ونعيمها في سائر أحيانه وتقلباته وسكناته وعباداته.

وكما لا يتذوق الإنسان حلاوة الأطعمة إلا إذا كان صاحب مزاج صحيح خال من مرض وحرارة وبشرط ألا يحجب اللسان حاجب كبعض الأطعمة التي تطلي اللسان فلا يتذوق لذة الأطعمة التي يأكلها صاحبها فكذلك القلب لا يجد صاحبه حلاوة ولذة ومعنى الإيمان إلا إذا كان صحيحاً سليماً من الأمراض والأدواء القلبية ولا يحجبه عن ربه حجاب الغفلة والاشتغال بالأغيار.

وقل لمن زعم أن هذه القضايا إنما هي من باب الخيالات وضرب الأمثال والمجاز وليست هناك على الحقيقة حلاوة للإيمان في القلب وإنما هي مجازية وأما الحقيقية فهي حلاوة اللسان ،قل له: ولِمَ لمْ تقل إن حلاوة الإيمان في القلب هي الحقيقية وحلاوة اللسان هي المجاز؟

واعلم أن الحقائق لا تفهم إلا ممن أنزل الله عليه الحق والحقيقة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) فكل ما أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حق وحقيقة، وما عليك إلا أن تجعل علومك باللغة وبلاغتها تابعة لما جاءك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] والإقناع للعقل قناع للرأس أيضاً ومن أقنعك بالدليل والبرهان فقد قنّع عقلك وكأنه ألبس رأسك قناعاً.

ولا تجعل أيها المؤمن الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك فإنها عندئذ تسيطر على قلبك وتشغلك وتلهيك عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ،وقد نبه جل وعلا إلى ذلك في قوله:(ألهاكم التكاثر *حتى زرتم المقابر).

ولا يقال في اللغة : فلان لاهٍ عن الشيء إلا إذا كان ذلك الشيء له أهمية وخطر وكان من الواجب أن ينتبه إليه ويسعى إليه ولكنه لها عنه بشيء تافه ،فاللهو ما يلهيك عن الأمر المهم ويشغلك بما لا يهم.

فقوله تعالى: (ألهاكم) أي شغَلكم ،ففعل {ألهى} أبلغ وأدق من فعل {شغل} كما تقدم ،وذلك لأن اللهو يأتي على القلب فينشغل الجسم، وأما الشغل فقد يشتغل الجسم ولكن القلب يقظ متنبه ، كما قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) مع أن أجسادهم تعمل وتبيع وتشتري ولكن قلوبهم يقظة حاضرة مع ذكر الله تعالى .

فقوله تعالى:(ألهاكم) أي شغل قلوبكم عما يجب عليكم أن تسعوا إليه وتبادروا إليه (التكاثر) أي من الدنيا، فمن الناس من يلهيه التكاثر من المال ومن يلهيه التكاثر من الولد، ومنهم من يلهيه التكاثر من التجارات والمناصب وهكذا.

قوله تعالى:(حتى زرتم المقابر) أي تركتم كل شيء كنتم قد تعبتم في كثرته وصرتم إلى المقابر زائرين زيارة مؤقتة حتى تقوم الساعة وينتهي الأمر إلى دار المقامة التي هي أحد الدارين الجنة نسأل الله ذلك من فضله، أو النار والعياذ بالله تعالى.

ولما سمع أعرابي قارئاً يقرأ: (ألهاكم التكاثر *حتى زرتم المقابر) قال: "بُعِثَ الناس وربِّ الكعبة"[1]، أي ما دام أمر القبور للزيارة فلا بد إذاً من الحشر والإعادة.

[1] انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٩٣/٨

واعلم أيها المؤمن أن القلب موضع نظر الرب جل وعلا، وهو جل وعلا ينظر نظر الرحمة والرضا لمن كان قلبه سليماً خالياً من الرعونات والأمراض، فاحذر أن تشغل قلبك بما يحجبه عن الله تعالى ،ولا تشغلك الدنيا وأموالها، ولا تحمل هم الرزق فإن الله تعالى الذي خلقك تكفل برزقك، قال سبحانه :(وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وكيف يُتصور أن يخلق الله خلقه ويهمل أرزاقهم التي تتوقف عليها حياتهم واستمرار بقائهم؟!

ولا ينافي هذا أن يتعاطى الإنسان أسباب رزقه ومعيشته على الوجه الذي شرعه الله تعالى، قال جل وعلا :(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) أي اسعوا في جلب أرزاقكم بالعمل والتجارة والزراعة وغيرها ولكن لا تتَّكلوا على أنفسكم وأعمالكم فالرزاق سبحانه وتعالى هو الذي يسوق لكم أرزاقكم على حسب علمه وحكمته سبحانه،ومع ذلك كله لا تنشغلوا وتنغمسوا في الدنيا وتغفلوا عن الآخرة فإن النشور والحشر والمصير إلى الله تعالى الذي سيسألكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

قوله صلى الله عليه وسلم : [ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما] الضمير في قوله صلى الله عليه وسلم : [سواهما] عائد إلى الله ورسوله وهذا من أدلة من قال بجواز ذلك، وليس هذا من باب المساواة بين الله ورسوله بل هو من باب الدليل والمدلول فإن علامة صدق محبتك لله تعالى هي محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى:(من يطع الرسول فقد أطاع الله).

فكيف يُتصور أن تطيع الله دون أن تطيع رسول الله ؟!

وكذلك في المحبة فلا تصح محبتك لله تعالى إلا إذا صدقت في محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أحب حبيب إلى الله تعالى وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ،وقد قال صلى الله عليه وسلم: [ألا وأنا حبيب الله ولا فخر][1]مع أن كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أحباب الله إلا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نال مقاماً في المحبة لم ينله أحد من خلق الله تعالى .

اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا إلى حبك ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

[1] انظر سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر : حول فضائل سورة الفاتحة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي سعيدٍ رافع بن المعلى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا أعلمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورةٍ في القرآن، قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته] رواه البخاري. اهـ

ولقد تقدم فيما مضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أبا سعيد رضي الله عنه وكان أبو سعيد يصلي نافلة فلم يجبه، ولما فرغ من صلاته جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذراً وبين له أنه كان مشغولاً بصلاته، فقال له صلى الله عليه وسلم: [ألم تسمع قول الله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[1] أي: فكان من الواجب عليك أن تقطع صلاتك وتجيب دعوتي.

وقد تقدم معنا أن الصلاة حيث كانت فرضاً أو نفلاً تقطع لإجابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا خاص في حياته الدنيوية صلى الله عليه وسلم.

[1] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

وأما غير الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاك وأنت في الصلاة كأبيك أو أمك فإذا كنت في صلاة نفل ولم تجب دعوة أحدهما ووجد في نفسه عليك شيئاً فعليك عندئذ أن تقطع صلاة النفل وتجيب دعوته، ويُعرف ذلك من خُلق والديك في سائر الأحوال ، وأما إذا دعاك غير أمك أو أبيك وأنت في صلاة النفل فلا إجابة لدعوته، ولا تقطع صلاة الفرض لدعوة أب أو أم إلا لإغاثة مستغيث من غرق أو حرق، أو إبعاد طفل أوشك أن يرمي نفسه من نافذة أو في النار.

ويقال عن سورة الفاتحة بأنها الفاتحة لأن القرآن الكريم قد افتتح بها وإن لم تكن هي أول ما نزل، إلا أن ترتيب المصحف كما هو مكتوب بين أيدينا اليوم أمر توقيفي أمر بذلك سيدنا رسول الله أصحابه الكرام رضي الله عنهم عن وحي من الله تعالى على حسب ما هو مكتوب في أم الكتاب وفي اللوح المحفوظ.

وتسمى سورة الفاتحة سورة الحمد أيضاً لأن فيها أنواعاً من محامد رب العالمين جل وعلا .

وقوله سبحانه في أول سورة الفاتحة: (الحمد لله رب العالمين) يحمد بها سبحانه نفسه، وحمده جل وعلا لنفسه لا يتناهى، وأما حمد المخلوق لربه فهو حمد متناه محدود على حسب ما يلاحظه من معاني الحمد، فإن أكل حمد الله على أن أطعمه ورزقه وهكذا إن شرب أو لبس أو ....

والله تعالى يحمد نفسه حمداً مستمراً باقياً بمعان لا نهاية لها، وحمده سبحانه لنفسه هو الحمد اللائق به جل وعلا، فلما يقول العبد:(الحمد لله رب العالمين) ويريد بذلك كلامه سبحانه، فيكون بذلك قد تقرب إليه سبحانه بحمده لنفسه، وفرق كبير بين ذلك وبين قول العبد:" الحمد لله رب العالمين" ولم يلاحظ أنها من كلام الله ومن حمده لنفسه جل وعلا.

وتسمى سورة الفاتحة سورة الثناء لأن فيها قوله تعالى :(الرحمن الرحيم) ، وسورة التحميد لأن فيها قوله تعالى:(مالك يوم الدين)، وتسمى سورة الشكر أيضاً لأن معنى الشكر فيها جاء في قوله تعالى:(إياك نعبد)، وذلك لأن الشكر يتضمن شكر اللسان وهو الحمد ، وشكر الجنان وهو اعتقادك بأن ما بك من نعمة فمن الله، وشكر الأركان والجوارح وهو صرفها في عبادة الله تعالى بعمل الصالحات وهذا قوله تعالى:(اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) أي: قليل أولئك الذين يستوفون مراتب الشكر.

وتسمى سورة الفاتحة أيضاً سورة الشافية والرقية لأن فيها الشفاء من كل داء بإذن الله تعالى، كما روى الدرامي عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[فاتحة الكتاب شفاء من كل داء] [1]
وفي شعب الإيمان للبيهقي :[فاتحة الكتاب شفاء من السم] أي من كل داء وسم.

[1] سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

وروى الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ :

[بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَنَزَلْنَا بِقَوْمٍ فَسَأَلْنَاهُمْ الْقِرَى فَلَمْ يقْرُونَا ، فَلُدِغَ سَيِّدُهُمْ فَأَتَوْنَا فَقَالُوا : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَرْقِي مِنْ الْعَقْرَبِ؟ قُلْتُ : نَعَمْ أَنَا وَلَكِنْ لَا أَرْقِيهِ حَتَّى تُعْطُونَا غَنَمًا ، قَالَ : فَأَنَا أُعْطِيكُمْ ثَلَاثِينَ شَاةً فَقَبِلْنَا فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَبَرَأَ وَقَبَضْنَا الْغَنَمَ، قَالَ : فَعَرَضَ فِي أَنْفُسِنَا مِنْهَا شَيْءٌ فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَيْهِ ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي صَنَعْتُ ، قَالَ : وَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْبِضُوا الْغَنَمَ وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ] .

قوله:"هل فيكم من يرقي" يعني: من يقرأ شيئاً على المريض أو اللديغ،

وقد اختلفت أقوال العلماء في أمر تلك الشياه التي أخذوها هل هي من باب الأجر أم الهبة؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر بذلك وقال: [اقْبِضُوا الْغَنَمَ وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ] .

فهناك من قال: هي من باب الأجرة، وعليه فإن أخذ الأجرة على القراءة لا مانع منه.

ومنهم من قال: لا يجوز أخذ الأجرة على القراءة، لأن القراءة عبادة ولا يجوز أخذ الأجرة على العبادة، وإنما هذه من باب الهبة ومن وهب لمن رقاه شيئاً جاز له أخذه.

ومما يستفاد من هذا الحديث: أن يقرأ الإنسان على نفسه سبع مرات سورة الفاتحة إن هو اشتكى من مرض أو ألم أو لدغ، ويحسن له أن يضيف إليها آيات الشفاء ثلاثاً ثلاثاً، وإن قرأها على ماء أو طعام وشرب منه فلا مانع.

وآيات الشفاء ست آيات وهي: قوله تعالى:(وإذا مرضت فهو يشفين) وقوله سبحانه:(وننزل من القرآن ما شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله جل وعلا: (ويشف صدور قوم مؤمنين) وقوله جل وعز :(وشفاء لما في الصدور) وقوله عز من قائل:(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقوله تبارك وتعالى:(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس).

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب الحسية لمعالجة الآلام والأمراض مع أخذه صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعنوية الروحية، ومنها الآيات القرآنية والتعاويذ الواردة عنه صلى الله عليه وسلم.

وتسمى سورة الفاتحة سورة المناجاة أيضاً لأن فيها مناجاة العبد ربه، وتسمى سورة التفويض لما ورد في الحديث القدسي: [فإذا قال العبد (مالك يوم الدين)قال تعالى: فوض إلي عبدي].

وروى مسلم وغيره [1]عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : [قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي].

-وفي السنن الكبرى للبيهقي : [فإذا قال العبد : بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله : ذكرني عبدي]-.

[فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثنى علي عبدي] أي كرر وأعاد حمده بأن ذكر صفاتي على وجه الحمد والمدح، وذلك لأن العبد حمد الله تعالى أولاً بقوله:(الحمد لله رب العالمين).

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة ومسند الإمام أحمد ٦٩٩٠

[وإذا قال:(مالك يوم الدين) قال الله تعالى: مجدني عبدي]
والمجد في اللغة هو العظمة والشرف، وإن كل العزة والشرف والعظمة والرفعة المطلقة لله وحده، وهو يعز من يشاء كما أعز رسوله صلى الله عليه وسلم وأعز صحابته وأعز المؤمنين فقال تعالى :
(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

-وفي رواية : [إذا قال العبد:(مالك يوم الدين) قال الله تعالى: فوض إلي عبدي]-.

[فإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل] أي: أن عبادة العبد هي لله تعالى، والمعونة هي من الله تعالى لعبده، والله يعطيه ذلك.

وفي قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) قدّم المعمول على العامل ليفيد معنى الحصر، فلا يُعبد أحد غير الله تعالى، ولا يُستعان إلا به جل وعلا ، فهو سبحانه يخلق القوة والعون في نفس العبد، والعبادة هي قيام العبد بحق الرب عليه.

[فإذا قال (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل] أي أن الله تعالى ضمن له أن يهديه الصراط المستقيم إن سأل العبدُ اللهَ ذلك موقناً صادقاً.

ومما يدل على أن من قرأ سورة الفاتحة وآخر سورة البقرة يعطيه الله تعالى ما نواه من قراءتها ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته].

وكان من جملة أوراد السلف الصالح رضي الله عنهم ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله ورضي عنه كان من جملة أورادهم اليومية قراءة سورة الفاتحة مائة مرة كل يوم، وذلك لما ورد من فضائلها وخصائصها.

وقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية على مراتب ، فهناك الهداية للإيمان أولاً ثم لأعمال الفرائض ثم النوافل، ولا تكون النوافل نوافل إلا إذا ازدادت على الفرائض، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الفرائض تامة كاملة بعددها وكيفيتها أي بخشوعها وآدابها، فالهداية في قوله تعالى:(اهدنا الصراط المستقيم) تعني التثبيت على الإيمان والزيادة من الهدى للأعمال والأقوال المرضية عند الله تعالى والتوفيق لذلك، وكأن العبد لما يقرأ (اهدنا الصراط المستقيم) يقول : اللهم ثبتنا على ما هديتنا إليه من الإيمان ، وزدنا هدى فوق هدى للأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ووفقنا للعمل لما هديتنا إليه.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في (قل هو الله أحد): [والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن].

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه:
[أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟

فقال:(قل هو الله أحد * الله الصمد) ثلث القرآن] رواه البخاري [١].

وعنه رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ:(قل هو الله أحد) يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها[٢]،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن] رواه البخاري [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في (قل هو الله أحد) [إنها لتعدل ثلث القرآن] رواه مسلم[٤].اهـ

---

[١] في صحيحه كتاب فضائل القرآن
[٢] قال الحافظ في الفتح: أَيْ يَعْتَقِد أَنَّهَا قَلِيلَة، وَالْمُرَاد اِسْتِقْلَال الْعَمَل لَا التَّنْقِيص.
[٣] في صحيحه كتاب فضائل القرآن
[٤] في صحيحه كتاب فضائل صلاة المسافرين

وتسمى هذه السورة سورة (قل هو الله أحد)، وتسمى سورة الإخلاص، وسورة التوحيد، وسورة التفريد، وسورة التجريد وذلك لأن فيها إخلاص التوحيد لرب العالمين، كما أن سورة (قل يا أيها الكافرون) تسمى سورة الإخلاص لأن فيها إخلاص العبادة لله وحده، وأن لا يعبد الإنسان مع الله تعالى شيئاً سواء كان صنماً أو وثناً أو درهماً أو ديناراً، لأن مَن شَغَلَ المال قلبه واسترق نفسه كان فيه نوع من عبادة الأوثان، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض][1].

ومما سبق يتبين لك أن سورة (قل هو الله أحد) فيها إخلاص التوحيد لله تعالى وتفريده سبحانه، وأما سورة الكافرون ففيها إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن [2].

قوله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده] يقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالذي روحه بيده وهو الله سبحانه وتعالى، وكأنه صلى الله عليه وسلم قال:"والله الذي روحي بيده".

وقد خصص صلى الله عليه وسلم ذكر نفسه التي هي بيد الله تعالى مع أن جميع أنفس الخلائق بيده سبحانه، وذلك لأن روحه صلى الله عليه وسلم هي أعظم الأرواح، وهي أول الأرواح خلقاً، وهو صلى الله عليه وسلم أول من نبَّأه الله تعالى في عالم الأرواح [3].

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه كتاب الرقاق

[2] انظر فيض القدير للمناوي ٦٨٠/٤ فقد صرح بتواتر الحديث.

[3] قال صلى الله عليه وسلم:[كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد] كما في مصنف ابن أبي شيبة وأصل الحديث في سنن الترمذي.

ولقد أقسم صلى الله عليه وسلم بالله تعالى على صدق ما أخبر عنه، وهو في الحديث المتقدم أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، مع أنه صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق في قوله وخبره صلى الله عليه وسلم، نعم إن في قَسَمه صلى الله عليه وسلم حِكماً وأسراراً منها لفت القلب والفكر إلى أهمية وعظمة الأمر المخبَر عنه وتقويته وتأكيده.

وقوله صلى الله عليه وسلم [(قل هو الله أحد * الله الصمد) ثلث القرآن] فقد سمى صلى الله عليه وسلم السورة بأول آية منها، ولهذا جاز تسمية الكل بالجزء واصطلح على ذلك.

وفي هذه السورة تجريد التوحيد لرب العالمين.

وللعلماء أقوال في تحديد معنى أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن هل ذلك من حيث المعنى أو من حيث القراءة والثواب؟

فقال بعضهم: إنها تعدل ثلث القرآن من حيث المعنى، وذلك لأن أصول العلوم القرآنية الجامعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم المواعظ والتذكير، ويتفرع عن هذه العلوم علوم لا يستقصى حدها.

ولما كان موضوع سورة الإخلاص هو توحيد الله تعالى وذكر كمالاته سبحانه وتعالى، ما بين إثبات المحاسن والكمالات اللائقة به سبحانه، وتنزيهه سبحانه عن الشبيه والنقائص، كانت تعدل ثلث القرآن من حيث المعنى.

وقال بعضهم: إنها تعدل ثلث القرآن من حيث ثواب قراءتها، فمن قرأها كان له من الحسنات كمن قرأ ثلث القرآن لكن بدون مضاعفة للحسنات، أما مضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها وأكثر فهي لمن قرأ ثلث القرآن تفصيلاً وفعلاً.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي [1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف].

ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها تكون للقارئ ولو عن قلب غافل، ولو بغير فهم لقوله صلى الله عليه وسلم [لا أقول (الم) حرف] ولا يعلم معاني (الم) إلا أولو العلم، ومع ذلك أثبت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مضاعفة الحسنات لمن قرأها، وأما المضاعفات الأُخرى الكبيرة فتكون على درجة فهم القارئ وتدبره لمعاني آيات الله تعالى وعلى درجة خشوعه لله تعالى وخشيته منه جل وعلا.

وقد فضّل سبحانه بعض السور القرآنية على بعضها الآخر، ورتب على قراءتها الأجر الكبير فضلاً منه سبحانه على عباده المؤمنين القارئين، وهذا كما فضّل سبحانه بين الأسماء الإلهية مع أنها كلها حسنى، لكنه سبحانه جعل لبعض أسمائه خصائص وفضائل.

وأعظم الأسماء الإلهية وأفضلها الاسم الجامع (الله) ثم (الرحمن)

وهناك الاسم الأعظم وهكذا.

وكما أن التوراة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام هي كلام الله تعالى، وكذلك الإنجيل النازل على سيدنا عيسى عليه السلام، والزبور النازل على سيدنا داود عليه السلام هما كلام الله تعالى أيضاً، إلا أن القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل تلك الكتب وأفضل ما نزل، وهذا بنص القرآن الكريم بقوله تعالى:(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) فللقرآن الكريم الهيمنة على جميع الكتب النازلة من عند الله تعالى.

[1] في سننه كتاب فضائل القرآن

وقد جاء هذا التفضيل بين السور والآيات القرآنية على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوحى الله تعالى إليه جميع ذلك، وليس للإنسان أن يفضل بين السور من تلقاء نفسه إلا بالاستناد إلى دليل شرعي من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يجوز أيضاً التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام إلا بدليل شرعي، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لا تفضلوا بين أنبياء الله][1]أي لا تفضلوا بينهم من تلقاء أنفسكم، بل التزموا في ذلك بما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك كما جاء عن الله تعالى وبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيدناً محمداً صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين[2]،ويليه في الفضل سيدنا إبراهيم عليه السلام، ثم بقية أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك لا يجوز أيضاً التفضيل بين المؤمنين إلا بدليل شرعي ، ومن الجهل والحمق الذي وقع فيه كثير من المتعبدين وأبناء الطريق أن أحدهم يفضل شيخ طريقته على غيره، ويجري الجدل والتخاصم فيما بينهم على أمر لم يكلفهم الله تعالى به، بل ابتدعته نفوسهم وأهواؤهم، فليعلم هؤلاء أن كل ما يفعلونه ويقولونه في هذا الشأن حرام، وأن لكل وليٍّ فضله ومقامه عند الله تعالى، وأن التفضيل بينهم لا يعلم حده إلا الله تعالى، فدع أيها العابد ما لا ينبغي، واعتقد أن لجميع الأولياء فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، واشتغل بتطهير نفسك وتزكيتها، ولا تضيع ثواب عباداتك بالكلام الذي لا طائل منه.

---

[1] طرف من حديث رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[2] جاء في مسند الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ].

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية أيضاً أنه فضّل بين الأماكن من حيث مضاعفة أجر الصلاة فيها، كالمسجد الحرام ومسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى[1]، وهناك أيضاً التفاضل في الأزمنة، فلا عمل أحب إلى الله تعالى من العمل الصالح في أيام العشر من ذي الحجة كما دلت عليه أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [2].

ومن فضائل سورة الإخلاص أن قراءتها مع المعوذتين ثلاثاً صباحاً ومساء تكفي صاحبها من كل شيء كما جاء ذلك عنه صلى الله عليه وسلم [3]، وكذلك قراءتها مع المعوذتين إذا أراد الإنسان النوم وأخذ مضجعه من الفراش وأن ينفث في يديه كل مرة ويمسح بهما وجهه وما استطاع من جسده كما جاء ذلك في الصحيح عن السيدة عائشة رضي الله عنها [4]

ومن أسرار مسح الوجه باليدين عند الفراغ من الدعاء، وكذلك مسح الوجه والجسد بعد قراءة بعض السور والآيات أن الإنسان لما دعا أو قرأ استنزل رحمة الله تعالى وبركاته وهي وإن كانت أمراً معنوياً إلا أن لها أثراً مادياً على الجسم يظهر بالشفاء من الأدواء أو طرد الآلام أو دفع الوساوس الشيطانية وهكذا، فالمسح عبارة عن إفراغ المعاني في قوالب المباني.

---

[1] جاء في شعب الإيمان للبيهقي قوله صلى الله عليه وسلم: [صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي ألف صلاة، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة] وهو في مسند الإمام أحمد ١٤٧٣٣ قريباً منه.

[2] جاء في سنن الترمذي كتاب الصوم قوله صلى الله عليه وسلم:
[ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام ...] الحديث، يعني أيام العشر .

[3] أخرج الترمذي في سننه أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن خبيب رضي الله عنه: [قُلْ:(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ].

[4] جاء في صحيح البخاري عَنْ السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ولا ينكر تأثير المعاني على المباني إلا جاهل أحمق، ولو أنك وجهت إلى المنكِر هذه الكلمات لاحمر وجهه وغضب، فقل له: إنما تكلمت معك بكلام، وهو أمر معنوي فما له أثَّر فيك مادياً واحمر وجهك وانتفخت أوداجك وهممت بي؟

ولو أنك تكلمت مع شخص بكلام لطيف فيه المدح والثناء لرأيته تبسم وفرح وظهر ذلك على وجهه، مع أن الكلام أمر معنوي، إلا أن له أثراً مادياً لا ينكره إلا أحمق.

وإن أعظم الأسباب تأثيراً في تغيير مزاج الإنسان ومرضه هي الأمور المعنوية كالكلام المزعج الذي يسمعه من غيره أو التصرفات المشينة التي يراها ممن حوله وهكذا.

ولما كانت المعاني القرآنية تعجز عن حملها السماوات والأرض كان لها أثر كبير في قارئها إن هو استشعر معاني كلام الله تعالى وخشع لعظمته.

فقراءة سورة (قل هو الله أحد) تحفظ الإيمان على صاحبها، وقراءة (قل أعوذ برب الفلق) تحفظه من الشرور والمخاوف، وقراءة (قل أعوذ برب الناس) تحفظه من الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية والهواجس الظلمانية، فواظب أيها المؤمن على قراءتها.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من القرآن سورةٌ ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر الله له ، وهي (تبارك الذي بيده الملك)].

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

وفي رواية أبي داود: [تشفع]. اهـ

قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من القرآن سورة] أَبْهَمَ الأمر أولاً ثم بيَّنه وبيَّن تلك السورة لما في ذلك من لفت للنظر وتأثير على النفس للاهتمام بهذا الأمر، وتقدير الكلام: مِن القرآن سورة شأنها عظيم وخطرها جسيم، ومن ذلك أنها شفعت لرجل مذنب كان يقرؤها حتى غفر الله له وهي سورة (تبارك الذي بيده الملك).

ويستدل من الحديث أن سورة (تبارك الذي بيده الملك) ثلاثون آية من غير البسملة، ولم يعدّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث البسملة آية من السورة، وهذا من جملة أدلة الحنفية على أن البسملة آية من القرآن الكريم تستحب قراءتها أمام كل سورة، وأنها ليست آية أول كل سورة [1]، أما عند الشافعية فمن جملة أدلتهم على أن البسملة آية أول كل سورة [2]ما جاء في الحديث أنه لما نزلت (إنا أعطيناك الكوثر) قرأها صلى الله عليه وسلم على الصحابة وقال:

---

[1] انظر كتاب بدائع الصنائع ٢٠٣/١

[2] انظر نهاية المحتاج ٤٥٧/١

[أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ :(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ).

ثُمَّ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ]..الحديث كما في صحيح مسلم [1] ، وما رواه البيهقي والدارقطني في الحديث:[قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فَنِصْفُهَا لَهُ ، يَقُولُ عَبْدِي إِذَا افْتَتَحَ الصَّلاَةَ : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فَيَذْكُرُنِي عَبْدِي][2].

ولا تنافي ولا تعارض في أقوال العلماء إذ إن الكل من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتمِس، وكل منهم استدل بحديث وعمل به، وعلى المؤمن أن يكون متبعاً للأئمة ويسعى في تحصيل الخير والإكثار من الحسنات .

ويدل الحديث المتقدم على أن المواظبة على قراءة سورة (تبارك) تشفع لقارئها في القبر والحشر وعلى الصراط حتى تدخله الجنة .

وروى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

[ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ) حَتَّى خَتَمَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ].[3]

---

[1] في كتاب الصلاة

[2] انظر سنن الدارقطني والرواية له وشعب الإيمان للبيهقي

[3] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل كان مواظباً على تلاوتها كل ليلة فأكرمه الله بقراءتها بعد وفاته في قبره، وهذا يدل على أن المؤمن الذي كان في الدنيا يتلذذ ويتنعم بعبادة الله تعالى فإن الله يكرمه بذلك بعد وفاته فيظل يعبد الله في قبره متلذذاً متنعماً إما بصلاة أو بتلاوة قرآن وهكذا.

ولا تنافي بين هذا وبين ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له] [1]فإن العمل الذي ينقطع عن ابن آدم بعد وفاته هو العمل الدنيوي التكليفي ، فلو أنه لم يكن يصلي ومات فلا يمكنه قضاء ما فاته من صلاة بعد موته، ولو أنه لم يكن قد أدى زكاة ماله فلا يمكنه تأدية زكاة ماله بعد وفاته وهكذا، وأما الأعمال التعبدية التي كان المؤمن ينعم بها فيستمر عليها ولو بعد وفاته على سبيل التلذذ والتنعم حيث لا تكلف أو مشقة.

وهناك تكاليف في برازخ الآخرة تناسب تلك العوالم البرزخية فهناك سؤال القبر حيث يكلف الميت بالجواب، وهناك تكليف الخلائق بالسجود لحضرة الله تعالى في عالم الحشر كما قال تعالى:(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً].[2]

[1] صحيح مسلم كتاب الوصية وسنن أبي داود كتاب الوصايا وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز عن أبي هريرة والرواية له

[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وهناك الامتحان العلمي الإيماني للخلائق قبل مرورهم على الصراط [1]..

ومما جاء في فضائل سورة الملك ما جاء في مسند عبد بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل : ألا أُطرِفك - يعني أتحفك - بحديث تفرح به ؟ قال : بلى يا أبا عباس يرحمك الله، قال: اقرأ: (تبارك الذي بيده الملك) فاحفظها وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ؛ فإنها المنجية ، وهي المجادلة ، تجادل وتخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب إلى ربها أن ينجيه من النار إذا كانت في جوفه ، وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر ، قال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي] .

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لَا يَنَامُ كل ليلة حَتَّى يَقْرَأَ: (الم *تَنْزِيلُ) السَّجْدَةَ، وَ(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)[2].

كما كان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوراد كثيرة قبل النوم ومن جملتها (المسبّحات) [3]وغيرها.

ومن العجب أن يبلغ الجهل في بعض عوام المؤمنين إلى درجة كبيرة حتى إن أحدهم سألني مرة عن مسألة شرعية فلما أجبته قال لي :

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حنفي المذهب أم شافعياً ؟

---

[1] انظر ذلك في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة للشيخ الإمام رضي الله عنه.

[2] انظر السنن الكبرى للنسائي

[3] جاء في مختصر قيام الليل للمروزي عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لا يَنَامُ كُلَّ لَيْلَةٍ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ، وَقَالَ:[إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً خَيْرًا مِنْ أَلْفِ آيَةٍ].

وليعلم كل مؤمن أن الجهل في ما يجب أن يعلم من أمور الدين بالضرورة ليس عذراً مقبولاً عند الله تعالى طالما أن المؤمن يقيم في بلاد الإسلام إلا إذا كان يقيم في بلاد الكفار وبينهم وبين المسلمين حرب قائمة ولا يمكنه أن يهاجر إلى بلاد الإسلام ليتفقه في أمر دينه،أما إذا كان يتمكن من الهجرة إلى بلاد المسلمين فالهجرة واجبة عليه عندئذ حتى يتفقه في أمور دينه.

وليعلم كل مؤمن أيضاً أن المذاهب إنما نشأت في عصر التابعين وأتباعهم إذ جعل العلماء يجتهدون في فهم نصوص الكتاب والسنة كالإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم وعن غيرهم من العلماء ممن لم تدون كتبهم وإنما نقل العلماء بعض أقوالهم.

وقد استدل كل مجتهد من هؤلاء العلماء على دليل من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس أو غير ذلك من الأدلة الشرعية، ومن هنا نشأ اختلاف أقوال الفقهاء وإن كان كل منهم على حق طالما استدل بدليل شرعي .

والخلاف في الأحكام الشرعية هو أمر مقصود من المشرِّع الحكيم ، وذلك لأن الشريعة المحمدية شريعة واسعة لجميع الأمم على مر الزمان إلى يوم القيامة ، فهي شريعة واحدة لكنها بمنزلة شرائع لها وجوه متعددة كعين ماء تفرع منها عدة جداول ، فمن شرب من الجدول الأول فقد شرب من العين ، ومن شرب من الجدول الآخر فقد شرب من العين أيضاً وهكذا فالفقهاء كلهم على حق.

ومما يدل على أن الاختلاف في فهم النص الشرعي هو أصل في باب الاجتهاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للصحابة رضي الله عنهم لما توجه لغزوة بني قريظة -وكان الوقت قبل العصر- : [لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة] [1]فانطلق الصحابة رضي الله عنهم، فمنهم من نظر في ظاهر النص ولم يصلِّ العصر إلا لما وصل أرض بني قريظة ، ومنهم من نظر في علة النص وهي الاستعجال في السير فصلى العصر في الطريق وأسرع في سيره إلى بني قريظة فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة بعد غروب الشمس أقرَّ كُلاً من الصحابة على ما فعل ولم يخطّئ أحداً ، وهذا لأن الصحابة رضي الله عنهم فهموا ذلك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعطي هذه المفاهيم المتعددة[2].

إذا علمت هذا فلا تقل بعد ذلك: هل كان رسول الله حنفي المذهب أم شافعياً أم مالكياً؟! ولا تقل أيضاً: هل كان رسول الله وفائي الطريقة أم قادرياً أم شاذلياً ؟! لأن هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم الذين جاؤوا بعد رسول الله بعدة قرون إنما رسموا لأنفسهم ولأتباعهم طريقة في العبادة استقوها من أحاديث رسول الله وعملوا بها، ويرحم الله القائل:

وكلهم من رسول الله ملتمس غَرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَم

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير

[2] قال ابن رجب في فتح الباري ٢٧/٧: مِن الصحابة مَن تمسك بظاهر اللفظ، ورأى أنه لا ينبغي أن يصلي العصر إلاّ في بني قريظة، وإن فات وقتها ، وتكون هذه الصلاة مخصوصة من عموم أحاديث المواقيت بخصوص هذا ، وهو النهي عن الصلاة إلاّ في بني قريظة .
ومنهم من نظر إلى المعنى، وقال: لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وإنما أراد منا تعجيل الذهاب إلى بني قريظة في بقية النهار، ولم يرد تأخير الصلاة عن وقتها، ولا غير وقت صلاة العصر في هذا اليوم ، بل هو باق على ما كان عليه في سائر الأيام

قوله تعالى:(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) "تبارك"في اللغة على وزن "تفاعل"ويدل على التعالي والتعاظم ، وفيه معنى البركة فيكون المعنى:"تعالى الله وتعاظم وجل وعلا عن خلقه على وجه لا يتناهى ، وكثر خيره وبره سبحانه على خلقه ".

جاء في الحديث عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعز إزاري، فَمن نازعني شيئاً منهما عذَّبتُه] [1].

وفي رواية : [الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ] [2].

وفي رواية: [الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي مِنْهُمَا شَيْئًا قَصَمْتُهُ] [3].

فصفة الكبرياء والعظمة ذاتية لله تعالى فله الكبرياء المطلق والعظمة التي لا تتناهى ،وينبغي على العبد أن لا يتخلى عن صفة العبودية لله وأن لا يجاوز حده وأن يعترف بالذل والافتقار للواحد القهار جل وعلا.

وليس للعبد شيء أوصفة من ذاته بل كل ما عنده من عطاء الله تعالى ومدده وفضله، فحقّ لله أن يتكبر، وهو سبحانه المتكبر لأن صفاته وكمالاته جل وعلا ذاتية له غير مكتسبة، وأما العبد فإن نال شيئاً من المال أو الجاه أو العلم فكل ذلك بعطاء الله تعالى ومدده فكيف يحق للعبد أن يتكبر؟!

---

[1] قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (الهدي النبوي والإرشادات المحمدية): قال في: (التيسير): أخرجه مسلم وأبو داود.

[2] المسند ٧٣٣٥ وسنن أبي داود كتاب اللباس

[3] كما في الأسماء والصفات للبيهقي

قوله تعالى: (تبارك الذي بيده الملك) أي تعالى وتعاظم في ذاته جل وعلا وكثر خيره وبره على خلقه ، ومن جملة بركاته سبحانه على خلقه أنه بيده الملك ،وأنه خلق الموت والحياة وخلق لهم ما به بقاؤهم ووجودهم من أرزاق وأقوات وهكذا.

قوله تعالى:(بيده الملك) أي التصرف في المخلوقات ، كما أنه سبحانه بيده الملكوت كما قال سبحانه :(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) .

أما عالم الملك فيشمل عالم الشهادة المحسوس بالحواس سمعاً أو بصراً أو لمساً كالهواء مثلاً فالإنسان لا يرى ذات الهواء ولكنه لا ينكر وجوده، ويستدل بدليل آثاره كتحريك الأشجار وتسيير الفلك وإثارة الغبار وهكذا.

كما أنك لا تسمع صوت الهواء أوالرياح بل تسمع صوت اصطدامه بالبنيان وتحريكه للأشجار ومروره بين تضاريس الجبال وهكذا ..

وإن المتصرف في هذه المخلوقات والمملوكات والمدبر لشؤونها على مقتضى العلم والحكمة هو الله تعالى الذي بيده الملك .

وإن قوله تعالى:(بيده الملك) ولم تأت الآية " الملك بيده" لأن في هذا التقديم معنى التخصيص والحصر ليبين جل وعلا أنه لا أحد يقدر على التصرف في تلك العوالم والمخلوقات إلا الله وحده، أما ملكوت الأشياء فهو السر القائم بها فجسم الإنسان مثلاً يعود إلى عالم الملك ، وأما روحه فتتبع عالم الملكوت، والملك والملكوت بيد الله تعالى.

ومادام ملكك وملكوتك أي جسمك وروحك بيد الله تعالى وتحت تصرفه فمالك تتكبر وتعصي أمره تبارك وتعالى والحال أنك في قبضته ومالَكَ من أمرك من شيء ؟!

ولذلك قال تعالى:(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم) أي يختبركم

(أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) .

فالمقصود من خلق الإنسان وحياته وموته اختباره وامتحانه بالتكاليف الشرعية التي اقتضاها الله تعالى لمصلحة وسعادة عباده.

فقوله تعالى :(ليبلوكم) يعني ليختبركم بما كلَّفكم به من الأمر و النهي (أيكم أحسن عملاً) أي أصلح عملاً مع الله تعالى.

وقد يتبادر الى ذهن الإنسان أننا بشر وقد تصدر منا الذنوب وقد نقصر في بعض الأعمال فما هو حالنا عندئذ؟

وأجاب سبحانه عن ذلك بقوله :(وهو العزيز الغفور) لمن تاب إليه واستغفره جل وعلا.

ولما ذكر سبحانه في أول هذه السورة الموت والحياة ذكر في آخرها السبب الأعظم الذي تتوقف عليه حياة الإنسان الدنيوية وهو الماء فقال تعالى: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) .

ومن واظب على قراءة السورة تمثلت قراءته لهذه السورة وروحانيتها يوم القيامة وشفعت لقارئها حتى يدخله الله الجنة ، اللهم اجعلنا من أهل الجنة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم دائماً أبداً والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة :

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله:[يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) ، فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر]. رواه مسلم . اهـ

وفي رواية لمسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :[يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قَالَ:قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }.

قَالَ : فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ : لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ][1].

ولقد كان أبيُّ بن كعب رضي الله عنه حافظاً لكتاب الله تعالى ولهذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

[أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟] .

ومعنى أن فلاناً يحفظ كتاب الله تعالى أو يحفظ القرآن أي أنه يقرؤه عن ظهر قلب وأن سور القرآن وآياته محفوظة في قلبه وصدره ، وليس معنى "فلان يحفظ القرآن" أي يحفظه عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان فإن هذا قد تكفل به الله تعالى بقوله جل وعلا :(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أي لحافظون له عن التغيير و الزيادة و التحريف على مر الزمان إلى قيام الساعة.

[1] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وقد جاء في فضل حفظ القرآن الكريم -أي قراءته عن ظهر قلب- أحاديث كثيرة منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاسْتَظْهَرَهُ]- أي قرأه عن ظهر قلب –
[فَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَشَفَّعَهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ][1].

فإذا كان حامل القرآن يشفع في عشرة من أهل بيته وجبت لهم النار فما أعظم مقامه وفضله وثوابه!.

قول أبي بن كعب رضي الله عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أي آية من كتاب الله معك أعظم]؟ قوله : الله ورسوله أعلم.

فاعلم أنه قد اتفقت كلمة الصحابة رضي الله عنهم على ذلك لما يسألهم رسول الله عن أمر وإن كان الجواب حسب الظاهر معروفاً عندهم إلا أنهم يقولون :" الله ورسوله أعلم "وذلك حتى ينالوا من رسول الله الجواب الحالي أو القالي لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يكون عَنَى من سؤاله شيئاً مخصوصاً.

ومن ذلك ما ورد في الحديث عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ ؟ قُلْنَا: بَلَى] [2]...الحديث.

---

[1] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

[2] انظر صحيح البخاري كتاب الحج

مع أنهم يعرفون اسم اليوم والشهر والبلدة إلا أن أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملهم على عدم المسارعة الى الجواب من جهة، ومن جهة أخرى فهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يريد من سؤالهم أن يعلّمهم ويلفت أفكارهم إلى أمر يجهلونه، ولو كان سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم على ظاهره المعروف عندهم لما سألهم ، ولكن لما سألهم دل على أن هناك شيئاً وراء ما يعرفونه لذلك كانوا يقولون:" الله ورسوله أعلم".

وكل ذلك يدل على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى فطانتهم وحرصهم على تلقي العلوم والمعارف منه صلى الله عليه وسلم.

فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيَّ بن كعب رضي الله عنه : [أيّ آية من كتاب الله معك أعظم]؟ قال :قلت: الله ورسوله أعلم، وانتظر الجواب الحالي من رسول الله أي استفاض واستمد الجواب من سيدنا رسول الله فأفاض عليه صلى الله عليه وسلم الجواب، فلما سأله صلى الله عليه وسلم في المرة الثانية قال: (الله لا اله الا هو الحي القيوم) فأجاب أبيّ بن كعب رضي الله عنه بالجواب القالي بعد أن أفاض الرسول عليه بالجواب الحالي.

قوله رضي الله عنه : "الله ورسوله أعلم" كلمة "أعلم"من صيغ أفعال التفضيل، ويستوي فيها المفرد والمثنى والجمع كما هو في قواعد اللغة.

وليس قول الصحابة:"الله ورسوله أعلم" يدل على التسوية في العلم بين الله ورسوله وأن علم الرسول صلى الله عليه وسلم كعِلم الله تعالى ، وإنما هذا من باب أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله تعالى ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أعلم الخلق بالله تعالى ، وهو الناطق عن الله جل وعلا ، وهو المبلِّغ عن الله تعالى ما أوحاه إليه وأمره بتبليغه، قال تعالى:(وما ينطق عن الهوى *إن هو إلا وحي يوحى)

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الناطق عن الله تعالى لا عن هوى نفسه، مع أنه صلى الله عليه وسلم السيد المعصوم بعصمة الله تعالى، وهو السفير عن الله تعالى أي الذي يُسفِر ويبيّن ما أراد الله أن يبينه لعباده، وقد قال تعالى في الملائكة: (بأيدي سفرة *كرام بررة).

قول أبي بن كعب رضي الله عنه : [فضرب في صدري] أي مسح صدري ملاطفاً مباركاً، ولم يقل :"ضرب صدري "فافهم .

وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: [ليهنك العلم أبا المنذر] [1] أي اهنأ بهذا العلم يا أبا المنذر .

واعلم ان لمسحات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرها وفضائلها ،فلما شكا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه شكا للنبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يثبت على الخيل فمسح رسول الله على صدر جرير فصار جرير بعد ذلك خيّالاً [2].

واعلم أيها المؤمن أن الدنيا وما فيها إنما هي لهو ولعب كما وصفها سبحانه بقوله:(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم) فمن اتخذها مطية إلى الآخرة وجعل عمله في الدنيا عملاً مشروعاً مرْضياً عند الله ورسوله يكون بذلك قد امتثل أمر الله تعالى فجعل دنياه لآخرته وجعل آخرته لربه فصارت دنياه وآخرته لربه جل وعلا.

---

[1] جاء في القاموس المحيط: هنّأه قال له: ليهنئك، وفي هذا دليل على أن العلم النافع هو أحق ما يهنأ به الانسان وأما أن تُهنِّىء الإنسان على نعم دنيوية فيكون ذلك بالتبعية، وإنما الأصل في ذلك أن يُهنَّأ على العلوم الشرعية النافعة، ولا يعرف قيمة الشيء وفضله إلا من تعقل وتفكر وتدبر.

[2] انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وفيه قول جرير رضي الله عنه: [مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ إِنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا].

ولا يحصل هذا بالكلام فقط للمؤمن، وإنما لا بد لمن يريد التحقق به أن يجعل أكله وشربه عوناً له على طاعة الله تعالى، ويجعل نومه ليستريح من تعب الدنيا ويعطي جسمه حقه حتى يقوى وينشط في طاعة الله تعالى ، وأن يكون عمله وتجارته امتثالاً لأوامر الله تعالى الذي قال : (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) كي يسعى لسد حاجاته وحاجات عياله ويقوم بحق الله في ماله وهو الزكاة والصدقات وأعمال الخير المتنوعة ، وإذا لبس الثياب كان لباسه ستراً لعورته وتجملاً وتكملاً، لا تفاخراً ولا تكبراً.

وهكذا فمن راقب جميع ذلك في حياته الدنيا كانت دنياه لآخرته وكان ممن شمله قول الله تعالى:(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً) أي لأنهم يخافون يوماً

(تتقلب فيه القلوب و الأبصار *ليجزيهم الله أحسن مما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب).

وقد دل قول الرسول صلى الله عليه وسلم :[ليهنك العلم أبا المنذر] دل على أن هناك علماً ينبغي أن يهنأ به صاحبه وهو العلم بالقرآن وبخصائص وفضائل سور وآيات القرآن.

وآية الكرسي هي آية العظمة الإلهية لما اشتملت عليه من أسماء إلهية ، ولقد قال بعضهم رضي الله عنه :" إن في آية الكرسي واحداً وعشرين اسماً من الأسماء الإلهية ما بين اسم ظاهر واسم مضمر واسم مقدر" [1].

وهي مصدرة باسمين عظيمين جاء في فضلهما أنها الاسم الأعظم وهما (الحي القيوم) [2].

---

[1] قال الزركشي في (البرهان) ٢٤/٤ : " وَقَدْ قِيلَ: فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ اسْمًا مَا بَيْنَ ضَمِيرٍ وَظَاهِرٍ".

[2] كما في سنن أبي داود كتاب الصلاة عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ{ الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }

وقد جاء في بيان الاسم الأعظم عدة أحاديث منها أنه " الحي القيوم" ومنها "الرحمن الرحيم" ومنها "الحنان والمنان " [1]

وقد سمي بالأعظم بمعنى أنه الجامع فيشتمل عدة أسماء ، فاسم الحي مثلاً يدخل في دائرته جميع أسماء الذات الإلهية، واسم القيوم يدخل في دائرته جميع أسماء الأفعال أي صفات الأفعال.

وقد تطلق الكلمة ويراد بها كلمات، وقد يطلق الاسم ويراد به أسماء كما هو الحال في اللغة العربية ، قال ابن مالك رحمه الله :" وكلمة بها كلام قد يُؤَمّ" فلا يلتبس عليك فهم أن الاسم الأعظم يشمل عدة أسماء إلهية يطلق على جملتها الاسم الأعظم.

واعلم أيها المؤمن أن مفاتيح فهم القرآن الكريم وعلومه إنما تُلتَمس عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن وبيانه، قال تعالى:(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقد آتاه الله تعالى مفاتيح الخزائن كلها، قال صلى الله عليه وسلم: [إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ] [2] فالفهم من عند الله تعالى ،والقاسم للفهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال:[إنما أنا قاسم والله يعطي][3].

---

[1] كما في مسند الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَلْقَةِ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ جَلَسَ وَتَشَهَّدَ ثُمَّ دَعَا فَقَالَ : "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إِنِّي أَسْأَلُكَ " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :[أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا ؟]قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى].
وفيه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ الْمَنَّانَ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :[لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى].

[2] المسند ١٥٤٢٥

[3] صحيح البخاري كتاب العلم والرواية له وصحيح مسلم كتاب الزكاة

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رحمه الله قال:

"قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟

- وفي رواية: هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ - [1]

قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن". [2]

فقد نال أهل البيت فهماً في كتاب الله تعالى فوق فهم عامة الناس كل ذلك ببركة صاحب العباء صلى الله عليه وسلم الذي يقسم الخيرات والعطاء الأكبر على عباد الله تعالى ، فهو سبحانه الفتاح والوهاب والمعطي ، وأما القاسم على خلق الله فهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب تعاليم الله له.

وقد جاء في فضل قراءة آية الكرسي أحاديث متعددة منها: قراءتها وراء كل صلاة وعند النوم .[3]

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي

[2] كتاب الجهاد والسير

[3] كما في الحديث [من قرأ آية الكرسي دُبُرَ كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت]. قال الإمام السيوطي في اللآلىء: أَخْرَجَهُ النسائي وابن حبان فِي صحيحه، وابن السني فِي عمل اليوم والليلة، وصححه أيضًا الضياء المقدسي فِي المختارة . وأما قراءتها قبل النوم فدليلها ما جاء في صحيح البخاري كتاب الوكالة عن أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذه وقال : والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، ثم قال لأبي هريرة : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قال رضي الله عنه :قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه لما حكى له ذلك : [أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة]؟. قال: لا، قال: [ذاك شيطان] أي تمثل بصورة إنسان محتاج إلى الطعام .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على معلم الناس الخير وجزاه عنا كل الخير، صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته] رواه مسلم[1].اهـ

جاء هذا الحديث في سياق ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في فضائل بعض سور القرآن الكريم.

قوله رضي الله عنه " سمع نقيضاً من فوقه": أي سمع صوتاً من السماء، وهو صوت الباب الذي فتح من السماء، وقد سمع ذلك جبريل عليه السلام وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما يدل عليه الحديث أن للسماء أبواباً لائقة بها، والباب هو ما يتوصل به إلى شيء آخر.

[1] في صحيحه كتاب صلاة المسافرين

وقد نزل الملَك من السماء بأمر من الله تعالى، لأن الملائكة أمريون لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى، قال تعالى مخبراً عن جبريل عليه السلام : (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وقال سبحانه في حق الملائكة عليهم السلام:(ويفعلون ما يؤمرون) ولذلك لا يُتصور منهم فعل المناهي لأن فعل المناهي من قِبَل الملك يحتاج إلى أمر من الله تعالى له، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء، كما قال سبحانه:(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) ومن ذلك تعلم أن الملائكة الكرام معصومون بعصمة من الله تعالى عن فعل الخطأ والمناهي.

وإن ما يذكره بعضهم في حق الملائكة عليهم السلام من فعل المخالفات فهو كذب وافتراء لا صحة له ولا دليل عليه.

إن الذي نزل بالقرآن نصاً على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالآيات القرآنية على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:(نزل به الروح الأمين *على قلبك لتكون من المنذرين) .

وأما خصائص بعض السور والآيات وفضائلها فقد ينزل بذلك بعض الملائكة غير جبريل عليه السلام كما في الحديث المتقدم ذِكره أن ملكاً نزل في بيان بعض خصائص سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ،مع أن الذي نزل بهما نصاً على سيدنا رسول الله على الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام.

وإن هذا الباب من السماء لم يُفتح إلا في ذلك اليوم، ولم ينزل ذلك الملك إلى الأرض إلا في ذلك اليوم، وذلك من أجل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرمة وبشرى.

قوله عليه السلام :"أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة" أي فقد خُص بهما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من النبيينعليهم الصلاة والسلام وذلك بما فيهما من الأسرار والأنوار والخصائص والفضائل.

قوله عليه السلام:" لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته" إما أن المراد بالحرف الحرف الهجائي المعروف الذي تتركب منه الكلمة، ويكون معنى "إلا أعطيته" أي أعطاك تعالى أجره مضاعفاً بنوره الكامل، وهذه المضاعفة تكون لكل قارئ ولو عن قلب غافل، وهذا خاص بهذه الآيات.

وإن أقل حد لمضاعفة حسنات قارئ القرآن هو عشر حسنات لكل حرف يقرؤه، ويضاعف الله تعالى لمن شاء على حسب حال القارئ وخشوعه وتدبره لمعاني آيات الله تعالى.

أو أن المراد من قوله "إلا أعطيته" أي أعطيت الشيء الذي قصدته من تلاوتك سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، فيحقق الله تعالى للقارئ لهما ما نواه من قراءته ويعطيه ما قرأه من أجله.

وهذا يدل على مشروعية قراءة الفاتحة وخواتيم البقرة، أو سورة الفاتحة فقط لمن كانت له حاجة ونوى بقراءته للفاتحة قضاء حوائجه أو حصول مراده، وهذا قوله عليه السلام: "إلا أعطيته" أي أعطيت ما أردته من قراءتك.

وإذا قيل: إنه يجب قراءة القرآن خالصاً في عبادة الله تعالى راجياً ثواب قراءته فقط.

فيقال: إن الاستعانة بعبادة الله تعالى- وتلاوة القرآن الكريم من جملة العبادات- على قضاء الحوائج وتيسير المهمات أمر مشروع ثبت في الكتاب والسنة، وقد قال تعالى:(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وقد اشتملت الصلاة على تلاوة الفاتحة وشيء من القرآن الكريم وعلى التكبير والتسبيح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء.

وقد ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث شريفة تبين فضل بعض السور والآيات القرآنية وخصائصها في قضاء الحاجات وكشف الهموم وتيسير الأرزاق.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:[من قرأ في كل ليلة (إذا وقعت الواقعة) لم تصبه فاقة أبداً] [1]والفاقة هي الفقر والحاجة.

وكذلك ما رواه أبو داود [2] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

[من قال إذا أصبح وإذا أمسى(حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سبع مرات كفاه الله ما أهمه، صادقاً كان بها أو كاذباً].

وفي هذا كله استعانة بتلاوة القرآن الكريم -الذي هو من جملة عبادة الله تعالى- على قضاء الحوائج الدنيوية، ولا يمنع ذلك نيل الثواب والأجر العظيم عند الله تعالى.

وجاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمَّه أمر بادر إلى الصلاة- أي صلاة النافلة- طالباً من الله تعالى تفريج ذلك الأمر.

فقد روى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال:

[كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر صلى][3].

وورد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
[قم يا بلال فأرحنا بالصلاة][4].

وقد تكفل الله تعالى بإجابة الدعاء الذي في آخر سورة البقرة..

---

[1] رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة والبيهقي في الشعب
[2] في سننه كتاب الأدب.
[3] في سننه كتاب الصلاة.
[4] في سننه كتاب الأدب.

فقد روى مسلم [1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

[لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا -أي لرسول الله صلى الله عليه وسلم -: "كُلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها".

فقال صلى الله عليه وسلم: [أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم[2]، فأنزل الله في إثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال- أي الله تعالى-: نعم.

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال: نعم.

(ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال: نعم. اهـ

ومعنى [نعم]: يعني أجبتك جواباً ونعم الجواب جوابي.

وهذا من عظيم فضل الله تعالى على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تكرمة له صلى الله عليه وسلم.

---

[1] في صحيحه كتاب الايمان

[2] أي انقادت بالاستسلام لها

أما خواتيم سورة البقرة فأكثر العلماء على أنها آخر ثلاث آيات منها، أي من قوله تعالى:(لله ما في السموات و مافي الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) إلى تمام السورة.

وقد جاء في بعض الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم فضل آخر آيتين من سورة البقرة، وكلمة خواتيم تدل على الجمع، وقد يراد من ذلك خواتيم كلمات سورة البقرة أو خواتيم جُملها .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:[إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان][1].

قوله تعالى:(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وهي أعمال القلب والنيات والهمم والعزائم القلبية، فإن أبداها الإنسان أو أخفاها في نفسه فإن الله تعالى يعلمها على حد سواء، ولا يغيب عنه شيء سبحانه، ويوم القيامة يحاسبكم سبحانه على ما أخفيتم وما أعلنتم.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل قال:

[إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك ،فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها] - أي لم يعملها خوفاً من الله تعالى- [كتبها الله له عنده حسنة كاملة]- ولكنه إذا لم يعملها لمانع أو عجز منه فعليه عندئذ وزر نيته وهمته، لأنه لم يمتنع عن فعلها خوفاً من الله تعالى، بل لمانع حال بينه وبين فعلها أو عجز وهكذا- [فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة].[2]

---

[1] في سننه كتاب فضائل القرآن .

[2] رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في صحيحه كتاب الرقاق

قوله تعالى:(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) وفي هذا تلقين من الله تعالى لعباده أصول الإيمان وأركانه.

قوله تعالى:(لا نفرق بين أحد من رسله) أي من حيث الإيمان، فنؤمن بأنهم كلهم رسل الله تعالى، أما من حيث الفضل فقد قال جل وعلا: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وأفضلهم وأكرمهم على الله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، ويليه أولو العزم من الرسل وهكذا...

قوله تعالى في تعليم المؤمنين وبيان موقفهم مع ما جاءهم من أوامر الله تعالى أن يقولوا (سمعنا وأطعنا) أي سمعنا سماع قبول وانقياد، وأطعنا لما سمعنا، فإن كان ما سمعنا أمراً ائتمرنا به، وإن كان نهياً انتهينا عنه، فحققنا ما سمعناه.

قوله تعالى:(غفرانك ربنا وإليك المصير)أي نسألك مغفرتك، والمعنى: أنه يا رب وإن كنا نسمع كلامك ونطيع أوامرك، فإننا نسألك المغفرة لأن أعمالنا لا تخلو من تقصير وغفلة فنحن نحتاج إلى مغفرة من عندك، وهذا معنى (غفرانك) أي حتى تجبر كسرنا وتتلافى تقصيرنا لأن مصيرنا إليك فأحسن نُزُلنا لديك.

[1] جاء في مسند الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ].

قوله تعالى(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقد ذكر سبحانه هذا بعد أن بين أصول الإيمان والأعمال بقوله جل وعلا مخبراً عن المؤمنين قولهم : (سمعنا وأطعنا) فنبه جل وعلا إلى أنه لم يكلف العباد إلا بما تطيقه عقولهم وأجسامهم، فلم يكلف العاقل أن يعتقد شيئاً فيه مناقضة صريحة للعقل السليم، فلم يكلفك مثلاً أن تعتقد أن الواحد هو ثلاثة والثلاثة هم واحد ، بل جاءت التكاليف الشرعية الاعتقادية والعملية تناسب ما أعطى الله تعالى الإنسان من عقل ومدارك وقوة بدنية .

ومن ادعى مناقضة الشريعة للعقول دل ذلك على نقص في عقله وفهمه، لأن الله تعالى الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم وبما يصلحهم ويسعدهم شرع لهم شرعاً مناسباً موافقاً لما خلقهم عليه ولما أمدهم به من عقل وفهم وقوة وسمع وبصر.

وقد يعجز العقل عن الإدراك والإحاطة ببعض قضايا الإيمان، وخاصة ما يتعلق بذات الله تعالى وكمالاته وصفاته، لكنه لا ينكرها بل لا يسعه إنكارها، وهذا كالبصير الذي يبصر نور الشمس ولا يستطيع ببصره إدراك حقيقتها أو الإحاطة بها ولكنه لا ينكرها.

ومن هذا - ولله المثل الأعلى - يتبين لك الفرق الكبير بين رؤية الشيء والإحاطة به، وبين المعرفة والعلم بالشيء وبين إدراكه والإحاطة به، فقضايا الإيمان أمور معقولة مقبولة لدى العقل السليم لكنه لا يستطيع إدراك حقيقتها والإحاطة بها علماً ومع ذلك لا يمكنه إنكارها، وإلا لأنكر نور الشمس لأنه لم يستطع الإحاطة بها وإدراك حقيقتها، قال الله تعالى:(ولا يحيطون به علماً) جل وعلا .

ولم يكلف سبحانه العباد من الأعمال إلا بمايطيقون كالصلاة والصيام والزكاة والحج...

ولو أن طاقة العبد نقصت وقوته ضعفت بسبب مرضه أو هرمه فإن التكليف يأتي مناسباً حاله فيصلي قاعداً مثلاً إذا لم يستطع الوقوف، ويدفع الفدية إذا لم يستطع الصيام وهكذا فلا تكليف فوق الطاقة.

وإن الله تعالى لا ينقص أجر العبد فضلاً منه سبحانه وكرماً كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله وسلم:[إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً][1].

قوله تعالى: (لها ما كسبت)- أي من الخير- (وعليها ما اكتسبت) أي من الشر.

قوله تعالى:(كسبت) أي في أمور الخير، و(اكتسبت) في أمور الشر ليبين جل وعلا أن فعل الشرور يحتاج إلى تكلف من النفس وإلى تجرئتها بخلاف أفعال الخير التي فطرت النفس على فعلها، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فوزن (كسبت): فعلت، ووزن (اكتسبت): افتعلت.

قوله تعالى:(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا).

(إصراً): أي تكليفاً شاقاً، وقد ألزم ذلك سبحانه الأمم السابقة بسبب مخالفتهم ، قال تعالى :(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً).

قوله تعالى:(واعف عنا)- أي اصفح عنا صَفْحاً- (واغفر لنا)- أي استرنا ستراً (وارحمنا)- أي اجلب لنا خيراً لأن العفو هو الصفح وترك المعاقبة، والغفر هو الستر فلا يفضحك على ذنوبك، والرحمة بجلب الخير لك.

(أنت مولانا) سيدنا وخالقنا ونحن عبيدك .

(فانصرنا على القوم الكافرين) .آمين .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل المشي إلى المساجد :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة]. رواه مسلم[1]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن]. متفق عليه[2]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من قال حين يسمع النداء: "اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة،وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته"حلت له شفاعتي يوم القيامة]. رواه البخاري [3]

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:[من قال حين يسمع المؤذن: " أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً، غفر له ذنبه]. رواه مسلم [4]

---

[1] في صحيحه كتاب الصلاة
[2] انظر صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الصلاة
[3] في صحيحه كتاب الأذان
[4] في صحيحه كتاب الصلاة

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة] .

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن [1].اهـ

قوله صلى الله عليه وسلم:[إذا سمعتم النداء] أي النداء إلى الصلاة [فقولوا مثل ما يقول] أي مثل ما يقول المنادي من الأذان .

وقد قال الله تعالى:(وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وهم المشركون وكفار أهل الكتاب.

والأذان هو نداء إلى الصلاة، وفيه يقول المؤذن:" حي على الصلاة" أي أقبل إلى الصلاة، والأذان أيضاً إعلان بدخول وقت الصلاة.

وإن المؤذن ينادي العباد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يناديهم إلى الصلاة كما أنه مكلف بالصلاة أيضاً، فهو لا ينادي من تلقاء نفسه بل ينادي مُبَلِّغاً عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ينادي عن أمر الله تعالى، لأنه أيضاً مأمور بالصلاة، فالمنادي على الحقيقة إلى الصلاة وقت دخولها هو الله تعالى، وإنما بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى، وبلَّغ المؤذن عملاً بأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الأذان المسجَّل لا يقوم مقام الأذان لكل صلاة، لأن الأذان لا تقتصر سنته على الإعلان بدخول وقت الصلاة فقط، وإنما هو عمل سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للنداء إلى الصلاة بألفاظ معينة، وإذا لم يؤذن مؤذن في حي من الأحياء فقد وقع أهل ذلك الحي كلهم في الإثم، لأن الأذان لكل صلاة عمل تعبدي مشروع سنَّه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[1] سنن أبي داود والترمذي كلاهما في كتاب الصلاة

وإن الأحاديث المتقدمة تدل على فضل الأذان، وتبين آداب الاستماع إلى الأذان، وما يترتب على سماع الأذان من واجبات، ومما يؤكد أهمية ذلك حرص الصحابة الكرام على تبليغ ما سمعوه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حول ما يتعلق بالأذان وآداب الاستماع إليه.

قوله صلى الله عليه وسلم:[إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول]-أي المنادي-[ثم صلوا علي] فينبغي على المؤمن أن يفرغ نفسه لدى الأذان ليصغي إليه ويردد ما يقول المؤذن عند سكتات المؤذن أثناء أذانه.

وينبغي على مستمع الأذان عند سماعه "حي على الصلاة" أن يقول: حي على الصلاة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي).

وعند سماعه "حي على الفلاح" أن يقول: حي على الفلاح،لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وورد في الحديث أن يقول المستمع [اللهم اجعلنا مفلحين] كما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة.

قوله صلى الله عليه وسلم[ثم صلوا علي] ويحمل هذا الأمر على السنة المؤكدة، وقال بعضهم: بل على الوجوب كما هو ظاهره.

فينبغي بعد إجابة المؤذن أن يصلي المؤمن على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من جملة حقوقه صلى الله عليه وسلم على كل مؤمن، لأن الدعاء بعد الأذان مجاب، فكانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هي خير دعاء للمؤمن وخير ما يفتتح به الدعاء.

[ثم سلوا الله لي الوسيلة] أي ادعوا الله تعالى بدعاء الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، بحيث إن جميع أهل الجنة يستمدون منها، وهي لا تنبغي إلا لعبد واحد، وهو سيد العِباد وإمام العُبّاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال:[وأرجو أن أكون أنا هو] ولا شك أن رجاءه صلى الله عليه وسلم محقق، لكنه صلى الله عليه وسلم قال هذا تواضعاً لرب العالمين.

ومعنى الوسيلة الواسطة، ولما كان صلى الله عليه وسلم هو صاحب الوسيلة كان كل خير يناله أهل الجنة إنما هو بواسطته صلى الله عليه وسلم.

وإذا كانت خيرات الجنة على اختلاف ألوانها تتنزل على أهل الجنة بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما بالك بخيرات الدنيا وما فيها والتي لا تعد شيئاً بالنسبة لخير الجنة التي لأدنى أهلها منزلةً قدرُ الدنيا وعشر أمثالها؟!

روى الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:[سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟!.

فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلِك من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيت يا رب.

فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله.

فقال في الخامسة: رضيت رب.

فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك.

فيقول: رضيت رب.

قال: رب فأعلاهم منزلة؟

قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) [1].

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

فهو صلى الله عليه وسلم الواسطة الكبرى في الخيرات الإلهية للعالمين في جميع العالمين.

قوله صلى الله عليه وسلم [فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة] أي ثبتت له شفاعتي يوم القيامة، وهي شفاعة خاصة لمن دعا بدعاء الوسيلة وراء الأذان، أما الشفاعة العامة فتعم جميع المؤمنين وتعم جميع أهل الموقف حتى الكفار، إذا كشف الله تعالى التجلي الإلهي بالغضب فينفض أمر أهل الموقف إلى الحساب ببركة شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتأتي الشفاعة الخاصة على ما تبقى من ذنوب العبد فتغفر له ويدخل الجنة، وأما من غفرت ذنوبه بالشفاعة العامة فيكون نصيبه من الشفاعة الخاصة أن يترقى مقامه في الجنة وترتفع درجته.

وقد تقدم ذكر دعاء الوسيلة كما جاء في رواية البخاري وغيره ، وزاد البيهقي في آخره [إنك لا تخلف الميعاد[1]].

وينبغي أن يذكر المؤمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ السيادة والتعظيم فيقول: [آت سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة] لأن ذلك من جملة تعظيمه صلى الله عليه وسلم الواجب على كل مؤمن، لقوله تعالى:(وتعزِّروه وتوقِّروه) أي تعظموه وتُجِلُّوه صلى الله عليه وسلم.

والدعوة التامة في الحديث هي الأذان، والصلاة القائمة هي الصلاة التي تمتثل أمر الله تعالى وتقوم إليها.

قوله صلى الله عليه وسلم:[والفضيلة] هي ظهور رفعة درجته صلى الله عليه وسلم على كل الدرجات التي رفع الله تعالى إليها النبيين من قبله، وعلو فضله صلى الله عليه وسلم على جميع النبيين.

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى الذي تحمده عليه الخلائق كلها.

---

[1] في كتابه الدعوات الكبير

ولقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتحينون وقت الأذان للدعاء لأنه وقت إجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

[إذا ثُوِّب بالصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء] .[1]

فائدة:

من الناس من يتكاسل عن أداء السنن القولية أو العملية الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدَّعي أنها من السنن التي يستحب على الإنسان فعلها وأنها ليست هي من باب الواجبات والفرائض.

فيقال لهؤلاء: إن في أداء السنن اتباعاً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى:(واتبعوه لعلكم تهتدون) فقد أمر الله تعالى باتباع النبي صلى الله عليه وسلم اتباعاً كلياً في كل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم، وإن أفعاله صلى الله عليه وسلم وإخباراته وأدعيته وأذكاره المباركة إنما هي بوحي الله تعالى وتعليمه له صلى الله عليه وسلم، ويترتب على فعلها خير كثير وفوائد جمة في الدنيا وفي الآخرة، ولا غنى للمؤمن عن الحسنات والشفاعة يوم القيامة، فما عليه إلا أن يواظب على فعل ما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن وآداب لتكثر حسناته ويصير أهلاً لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة به.

وإن الورع والأخذ بالأحوط أمر من صفة أولي الألباب من العقلاء فكن أيها المؤمن منهم، والزم كل ما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن في الآداب والأقوال والأعمال.

وإن الأمور التي قد تكون جزئية في نظرك لها يوم القيامة أثرها ونفعها الكبير لك، فاحرص عليها أيها المؤمن وإن كنت من الخواص فإن لسانك قد لا يخلو عن الغيبة مثلاً وقلبك لا يخلو عن الغفلة.

[1] رواه الامام أحمد في مسنده برقم ١٤١٦٢

وإن حقوق الأعراض فيما بين المؤمنين أهم وأعظم من الحقوق المالية التي قد يصفح المظلوم فيها عمن أكل حقه المالي، وأما إذا بلغه أنك قد اغتبته بكلام قبيح أو بهتَّه بما ليس فيه فلا يصفح عنك بتلك البساطة، وإن لم يجر ذلك في الدنيا فلا بد من التقاضي يوم القيامة بالحسنات والسيئات، فلا تتهاون أو تتكاسل في فعل شيء مما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة حاجتك لنفعه وخيره وفضله العائد عليك.

ولا تكون السنن نوافل -أي زائدة على الفرائض - إلا إذا كانت الفرائض تامة كاملة من حيث الاستقصاء والخشوع فيها لله تعالى، وإلا فيؤخذ من السنن لجبر ما نقص من الفرائض، ثم يؤخذ منها أيضاً -إن بقي منها شيء- لتسديد حقوق العباد، وإن لم تكف أخذ من الفرائض، فيقع الإنسان عندئذ في نقص فيحتاج إلى من يسعفه وينقذه ويشفع به، فلا تترك شيئاً من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنت مؤمناً عاقلاً بعد ما بان لك شدة حاجتك إليها.

ومن السنن التزام آداب سماع الأذان وما يجب قوله بعد ذلك من صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاء الوسيلة.

قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم [من قال حين يسمع المؤذن: " أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً" غفر له ذنبه].

[غفر له ذنبه] أي من الصغائر، أما الكبائر فلا بد لغفرها من توبة خالصة لله تعالى،وهذه القاعدة تشمل كل ما ورد في هذا الشأن.

والتوبة عمل من أعمال القلوب تشمل ندم القلب وأسفه على ما فعل صاحبه، والعزم على أن لا يعود، وأداء الحق لصاحبه إن كان الذنب يتعلق به.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

قال الله تعالى: (وقل رب زدني علماً).

وقال تعالى:(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

وقال تعالى:(يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ).
وقال تعالى:(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين] متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ،ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها و يعلمها] متفق عليه.

والمراد بالحسد الغبطة وهو أن يتمنى مثله.اهـ

العلم الذي ذكره سبحانه في الآيات المتقدمة هو العلم النافع الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ويتضمن العلم بكتاب الله والعلم بأحاديث سيدنا رسول الله كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله:

[مثل مابعثني الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني به الله فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به] متفق عليه[1].

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله الزيادة من العلم أي من العلم بالله تعالى وتوحيده وكمالاته سبحانه،لأن العلم بالله جل وعلا علم لا نهاية له لأنه يتعلق بصفات الله وكمالاته سبحانه التي لا تتناهى، قال تعالى:(وقل رب زدني علماً) أي علماً بك سبحانك، وإن الأمر للمؤمنين يأتي تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يأمر الله تعالى عباده بالاستزادة من شيء إلا بالاستزادة من العلم .

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّته الاستعاذة من علم لا ينفع فقد جاء في الحديث :[اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها].[2]

فالعلم على إطلاقه هو ما ينفعك في دينك، وإن الدين جاء لصلاح الدنيا والآخرة، فمن ذلك العلم بأحكام الله تعالى المتعلقة بمعاملة الناس مع بعضهم من بيع وتجارة ورهن وآجار ،وهناك علم الأصول وما يتعلق به من أحكام، كل ذلك جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصلاح أمور الدنيا وتنظيم معاملة الناس فيما بينهم ، فمن عمل به فقد امتثل أمر الله تعالى وسعد في الدنيا وفاز في الآخرة..

---

[1] صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الفضائل

[2] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وإن أصل العلوم النافعة ومرجعها هو العلم بـ (لا إله إلا الله) وعنه تتفرع جميع العلوم لأن معنى (لا إله إلا الله) "لا معبود حقاً يُعبد إلا الله" فاعتراف العبد بذلك يحتم عليه أن يعبد الله تعالى.

ولا بد لعبادته سبحانه من علم ، وهذا هو العلم بأحكام الزكاة والصلاة والصوم والحج، وهناك العلم بالحلال والحرام وأحكام الله المتعلقة بمعاملات الناس فيما بينهم.

ولقد كان من دعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:
[اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار[1]] لأن حال أهل النار حال غضب الله وسخطه وينبغي على المؤمن أن يستعيذ من غضب الله وسخطه .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [وزدني علماً] أي علماً بك يا رب أزدَدْ به تقرباً منك.

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في قيام الليل:

[لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب[2]].

قوله تعالى:(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) أي إن العلماء بالله تعالى هم أهل الخشية من الله تعالى، وكلما ازدادوا علماً بالله وآياته ازدادوا خشية منه سبحانه أي ازدادوا خوفاً منه سبحانه وإجلالاً وتعظيماً ومهابة له جل وعلا.

---

[1] سنن الترمذي كتاب الدعوات
[2] سنن أبي داود كتاب الأدب والسنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان

وإن أشد العالمين خشية لله تعالى هو أعرفهم وأعلمهم بالله تعالى وهوسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن ذلك بقوله في الحديث الشريف :

[والله إني لأَعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له [1]] لذلك ينبغي على كل مؤمن أن يطلب الزيادة من العلم بالله وكمالاته وآياته سبحانه حتى تزداد خشيته من الله تعالى ومهابته منه جل وعلا.

قوله تعالى:(يرفع الله الذين آمنوا منكم) أي يرفع الله الذين آمنوا منكم رفعاً عاماً، ويشمل هذا كل مؤمن حتى العلماء إلا أنه سبحانه خص الذين أوتوا العلم بالرفع الخاص في الدرجات فقال جل وعز :(والذين أوتوا العلم درجات) أي درجات على غيرهم من الذين آمنوا .

قوله صلى الله عليه وسلم:[مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ والله يُعْطِي[2]].

وفي رواية للطبراني:[من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده[3]] . فمن وجد في نفسه حباً للعلماء وحضور مجالس العلم وسماع دروس العلم التي تتناول بيان دين الله تعالى بما اشتمل عليه من الإسلام والإيمان والإحسان، من وجد في نفسه حباً للتفقه في ذلك وسعى إلى تحصيله فليعلم أن الله تعالى قد أراد الله به خيراً وليستبشر بفضل الله عليه.

والدين هو ما جاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال للصحابة الكرام رضي الله عنهم : [فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ] وذلك بعدما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان وأجابه صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك.

---

[1] المسند ٢٣٧٦٥

[2] صحيح البخاري كتاب العلم والرواية له وصحيح مسلم كتاب الزكاة

[3] انظر المعجم الكبير

وقد تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل وسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام الصحابة فقال : [يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ].

- وفي رواية له : أن تخشى الله كأنك تراه - ، ثم قال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث:[فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ [1]].

فالدين يتضمن الإسلام وهو الأعمال الظاهرة الجارحية، ويتضمن الإيمان وهوالاعتقادات القلبية، ويتضمن الإحسان الذي هو أحوال القلب في معاملته مع الله تعالى كالمشاهدة و المراقبة.

فمن أراد الله به خيراً فقَّهه في أمور الدين وقضاياه ووجد في نفسه حباً وسعياً لتعلم ذلك، ومن شغلته الدنيا عن تعلم أمور دينه حتى قسا قلبه ولم ير في نفسه حباً أو ميلاً لتفهم أمور دينه فهو على خطر إذ إنه وقع في الشقاء والحرمان فَلْيَبْكِ على نفسه وليبادر إلى التوبة والبعد عن كل ما يشغله عن الله تعالى عسى الله أن يقبله ويوفقه إلى الخير.

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وروى البخاري[1] عن عمران بن الحصين رضي الله عنه أنه قال:

[إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ،قَالُوا: قَبِلْنَا] - أي الفوز بالجنة –[جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ] - أي نسألك عن هذا العالَم بما فيه هل هو قديم لا أول له أم هو مخلوق بعد عدم؟-[قَالَ صلى الله عليه وسلم : كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ].- وفي رواية له :[كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ][2] .

أي أن القديم الأزلي الذي لا أول لوجوده هو الله تعالى وحده، وأما ما عداه فمخلوق بعد عدم.

فقوله صلى الله عليه وسلم: [كان الله ولم يكن شيء غيره] أي بالكينونة الأزلية التي لا أول لها[وكان عرشه على الماء] أي بالكينونة الحادثة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: [كان الله ولم يكن شيء غيره].

[ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء] ويسمى اللوح المحفوظ ذِكراً لأنه ما من شيء إلا وذكر فيه، ويسمى القرآن الكريم ذِكراً كما في قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وذلك لأن الله تعالى ذكر فيه كل شيء كما قال تعالى:

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) أي ما أهملنا أو قصرنا في ذكر شيء في هذا القرآن، وقال جل وعلا :(وإنه لذكر لك ولقومك) .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد

[2] المرجع السابق كتاب بدء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم:[طلب العلم فريضة على كل مسلم][1]
أي العلم الذي تصح به العقيدة ويصح به العمل وما يتطلبه منك الحال فالغني مثلاً يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة ومقاديرها ومصارفها، ولا يجب ذلك على الفقير.

وكذلك من أراد الحج فيجب عليه أن يتعلم مناسك الحج حتى يصح حجه، وهكذا لا بد لكل مؤمن أن تكون عباداته ومعاملاته قائمة على أساس علمي شرعي صحيح.

وإن من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يعلِّمه، قال تعالى:(ويعلمهم الكتاب والحكمة) أي مما اشتمل عليه الكتاب من أحكام واعتقاد وغير ذلك.

قوله صلى الله عليه وسلم:

[من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده] يعني يلهمه ما فيه رشاده وصلاح نفسه.

وقد علم سيدنا رسول الله الحُصَين رضي الله عنه -وكان زعيماً في قومه- علَّمه أن يدعو فيقول:

[اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي][2]وفي رواية : [وقني شر نفسي][3] وفي رواية: [اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأستجيرك من شر نفسي] [4] وفي رواية: [اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي ، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي] [5].

---

[1] انظره في سنن ابن ماجه والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي ومسند أبي يعلى الموصلي، وقال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة: قال العراقي: قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه كما بينته في تخريج الإحياء، وقال المزي: إن طرقه تبلغ به رتبة الحسن اهـ ١/ ١٤٩

[2] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[3] عزاها في كنز العمال إلى الروياني وأبي نعيم

[4] انظر المعجم الكبير للطبراني

[5] المسند ١٩١٤١

ومن ألهمه الله رشده فقد تولاه ومن لا فقد وكله لنفسه، وهذا سر معنى قوله صلى الله عليه وسلم:[وأعذني من شر نفسي].

قوله صلى الله عليه وسلم : [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ،وإنما أنا قاسم والله يعطي].

وفي هذا بيان من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن العلم لا يؤخذ إلا عنه صلى الله عليه وسلم فهو الذي أفاض الله عليه العلوم والمعارف والأسرار والأنوار وقام بقسمتها على من تعرض لها، فالمعطي هو الله إلا أن طريق العطاء وموضع تقسيم العطاء وواسطته هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلا يمكن لأحد أن ينال شيئاً من الله تعالى من علم أو مرتبة أو منقبة أو مرتبة أو كرامة أو مقام إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال العارف سيدي محمد البكري [1]:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

ما أرسل الرحمن أو يرسل من رحمة تصعد أو تنزل

في ملكوت الله أو ملكه من كل ما يختص أو يشمل

إلا وطه المصطفى عبده نبيه مختاره المرسل

واسطة فيها وأصل لها يعلم هذا كل من يعقل

وقد يزعم جاهل أنه لا حاجة لواسطة سيدنا رسول الله للترقي في مقام القرب من الله تعالى ،وأنه لا واسطة بين العبد وربه فيقال في سياق الرد على من زعم هذا:

الإيمان الذي وفقك الله إليه هل نلته من الله تعالى مباشرة أم بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟!

ولولا أنك آمنت و أذعنت لسيدنا محمد لما صح لك إيمانك.

---

[1] الأستاذ الأعظم الشيخ محمد ابن الشيخ أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري المتوفى سنة ٩٩٣ هـ رضي الله عنه ونفعنا به.

وقد قال تعالى في بيان مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس: (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم* صراط الله) ولا يمكنك أن تستغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي هداك ويهديك إلى الله تعالى، ولو أن أحداً من الآحاد أمكنه أن ينال شيئاً من المقامات والمكرمات من حضرة رب العالمين دون واسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لصح له أن يدخل الجنة من غير أن يكون وراء رسول الله ، وهذا ما نفاه المشرِّع الحكيم فقد نبه صلى الله عليه وسلم أن كل المؤمنين حتى الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء إنما يدخلون الجنة وراء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمامهم وإمامهم .

وإن مقام الوسيلة في الجنة الذي خص الله تعالى به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم هو أعلى مقام ومنزلة في الجنة، ولما حل رسول الله في مقام الوسيلة أي الوساطة فقد حل في مقام الواسطة بين الله تعالى وخلقه، فما من خير ينزل على أهل الجنة إلا بواسطة صاحب مقام الوسيلة صلى الله عليه وسلم أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم الدين.

وإن كانت خيرات الجنة وفضائلها وما فيها من ألوان النعيم الحسية والروحية والقلبية لا تُنال إلا بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم فما بالك بخيرات الدنيا الجزئية التي لا تقاس أبداً بخيرات الجنة وما فيها؟!

فلا تنكر واسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال:

[إنما أنا قاسم والله يعطي] كما نقول: الله تعالى هو الفتاح الذي فتح قلوب المؤمنين للإيمان لكن بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال للأنصار يوماً: [يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي][1]؟!.

ولو لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله تعالى وبين عباده لما قال صلى الله عليه وسلم :[بي].

وجاء في التوراة في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً [2]".

وقال تعالى في صفة المؤمنين الصادقين:(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

أي اتبعوا النور الذي أنزل عليه وهو معه لا ينفك عنه بل هو ملازم له ،فمن ابتغى نور الإيمان فلا يجده إلا عند مَن هو معه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن بيان أدلة ثبوت واسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين الله وخلقه كثيرة قد أتينا على ذكرها في غير هذا الموضع.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

---

[1] صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الزكاة

[2] انظر صحيح البخاري كتاب البيوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: [لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها] متفقٌ عليه.

قال: والمراد بالحسد الغبطة، وهو أن يتمنى مثله.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى إنما هي قيعانٌ، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به]. متفقٌ عليه.اهـ

يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مصرف الحسد الذي هو جِبِلَّة في نفس الإنسان، والحسد منه مذموم نُهي عنه وقد نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة، وهناك الحسد المحمود ويسمى الغبطة.

وحسد الغبطة هو تمني الإنسان أن يحصل على نعمة رآها على غيره دون أن تزول عنه وهو حسد ممدوح أراده الرسول في الحديث المتقدم ، وأما إذا تمنى زوال نعمة رآها على غيره وأن تنتقل إليه فهو حسد مذموم قبيح نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلى الإنسان أن يسأل الله من فضله لأن من تفضل على غيره قادر أن يتفضل عليه،فليسأل وليطلب منه سبحانه دون أن يتمنى زوال النعمة عن غيره لأن في ذلك اعتراضاً على الله تعالى وانتقاداً لحكمته سبحانه الذي أنعم وتفضل على غيره.

وفي الحسد يريد الحاسد ضرر وأذى غيره وقد نهى الشارع عن ذلك كله، وأمر بالمحبة والود والتعاطف بين المسلمين،وأقبح الحسد أن يتمنى الإنسان زوال نعمة رآها على غيره ولو لم يتمن أن تنتقل إليه.

والحاسد حاقد إذ لم يحمله على حسد غيره إلا حقده وسخطه على قسمة الله في عطاياه لخلقه، ولذلك فإن الحسد والإيمان الكامل لا يجتمعان.

والحسد يُنقص الإيمان وينقص العمل الصالح.

روى الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب]
وهو الحسد الذميم القبيح بحيث يتمنى المرء زوال نعمة رآها على غيره، وأما أن يتمنى المرء أن ينال ما نال غيره دون أن تزول عن غيره النعمة فهذا هو حسد الغبطة الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسان مصرفه بأن يوجه قوة محبة النعمة بأن يتمنى فعل ما عند غيره دون أن تزول عنه وهو قوله صلى الله عليه وسلم:[لا حسد إلا في اثنتين].

ولذلك فإن سائر الصفات والغرائز الإنسانية التي أودعها الله في النفس البشرية لم يأت الأمر بسحقها وإزالتها إذ إنه لا يمكن ذلك فالإنسان مجبول عليها، وإنما جاءت الأوامر الشرعية بصرف تلك الصفات والشهوات والقوى في مصارفها التي أحلها الله تعالى، فلم يأمر الله بِغَضِّ البصر كلياً فالبصر نعمة، وإنما على الإنسان أن يغض من بصره فلا ينظر إلى ما حرم الله بل إلى ما أحل الله،وكذلك السمع وشهوة النساء والطمع فعلى الإنسان أن يطمع فيما عند الله تعالى من مغفرة وفضل، لا في الدنيا وما فيها قال تعالى مخبراً عن خليله سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله :

(والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين).

والحرص أيضاً من صفات الإنسان فعليه أن يحرص على ما ينفعه ويبقى معه لا أن يحرص على ما يفنى من الدنيا ومتاعها.

قال صلى الله عليه وسلم:

[احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز] [1].

وإن من حكمة الشريعة الإلهية للعباد أنه سبحانه إذا حرّم أمراً حرّم جميع ما يوصل إلى ذلك الأمر من طرق، فلما حرم سبحانه الزنا مثلاً حرم نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية التي يحل له نكاحها، وحرم لمسها وحرم شم ريحها وحرم سماع نغمة صوتها وحرم الخلوة معها وهكذا لئلا يقع الإنسان في جريمة الزنا، وقد قال سبحانه: (ولا تقربوا الزنا) فنهى سبحانه عن القرب من الزنا بأسبابه فضلاً عن الوقوع فيه، ألا ترى إلى أن المشرِّع الحكيم نهى الإنسان أن يجالس أو يلامس أو يدنو ممن أصيب بداء مُعْدٍ لئلا ينتقل إليه المرض؟

فكما أن البعد والتوقي عن الإصابة بالمرض أمر واجب شرعاً فكذلك البعد عن طرق وأسباب الوقوع في المحرمات.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر

قوله صلى الله عليه وسلم: [لا حسد إلا في اثنتين] أي لا تحسد أحداً يا حاسد إلا في أمرين، وليكن حسدك لهما حسد غبطة وهو أن تتمنى وتسأل الله أن يرزقك مالاً تنفقه في طاعة الله تعالى كما أعطى فلاناً الذي ينفق ماله في فعل الخير وصلة الرحم، وكذلك أن تدعو الله أن يعلمك الحكمة لتعلمها الناس .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير] أي سلط ماله على إهلاكه في فعل الخيرات وهذا يدل على سعة وكثرة نفقاته وكأنه يريد إهلاك ماله فمثل هذا يحسد حسد غبطة لأنه يتوسع ويكثر من نفقته ويسارع في الخيرات دون تقصير وشح.

واعلم أيها المؤمن الموسر أن من قصدك بحاجة ولم يظهرها لأحد غيرك فعليك أن تسد حاجته وتعطيه كفايته إن كنت قادراً على ذلك، ولا تبخل عليه وتدعه يظهر حاجته لغيرك إذ تمنعه عفته ونزاهته عن عرض حاله وفاقته.

ويقول صلى الله عليه وسلم:

[مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ]. [1]

وقال جل وعلا:(والذين في أموالهم حق معلوم *للسائل والمحروم).

وقال تعالى:(وفي أموالهم حق للسائل والمحروم).

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

أما السائل فهو الذي يسأل الناس ويعرض فاقته، وأما المحروم فهو الفقير الذي يتعفف عن سؤال الناس، ومن اطلع على حاجته من أهله وأقاربه أو غيرهم وجب عليه مساعدته،ولا شك أن أقاربه وأرحامه أولى الناس بالإحسان إليه، وأول من يسأل الله تعالى العبد في نفقاته يسأله عن أرحامه[1].

ومن تمنى لو أن عنده من المال مثل فلان الغني الصالح الذي ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى فله من الأجر مثله.

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ :" لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ : " لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ][2].

وإن دليل صدق النية أنه لو تيسرت له أسباب العمل الذي نواه لأقدم عليه دون تكاسل أو تردد.

وأما الأمر الثاني فهو: [ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها].

فهو الذي يحسن بالمؤمن أن يتمناه ويحسد عليه غيره حسد غبطة وهو أن يغبط رجلاً آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس.

---

[1] جاء في المعجم الكبير للطبراني قوله صلى الله عليه وسلم: [يا أمة محمد، والذي بعثني بالحق لا يقبل الله يوم القيامة صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صدقته ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة].

[2] سنن الترمذي كتاب الزهد ومسند الإمام أحمد ١٧٦٩٠

وفي رواية للحديث: [رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ[1]] فهذا رجل آتاه الله القرآن أي الفهم للقرآن والعمل بالقرآن يأتمر بأوامره وينتهي عما نهاه عنه ويبلِّغ القرآن ويعلِّمه ويقوم الليل به، فمثل هذا يُغبط بل يجب على المؤمن أن يتمنى أن تكون تلك النعمة عنده كما هي عند فلان.

وأما رواية:[ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها] يعني الحكمة النبوية وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم التي هي بيان للقرآن الكريم، لأن القرآن هو الحكمة الإلهية وجاءت الحكمة النبوية وهي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لتبين معاني القرآن وما فيه من حكمة، وهي أيضاً بوحي الله تعالى إلى رسول الله كما قال تعالى: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وهي السنة النبوية التي ظهرت في أقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفة المباركة .

والأصل في معنى الحكمة صحة العلم وصحة العمل، فالحكمة تطبق ما يقتضيه العلم الصحيح، ومن صح علمه صح عمله الذي عَمِله على مقتضاه وصحت حكمته، ومن لا فحكمته فاسدة و ناقصة.

ولما كان علم سيدنا رسول الله علماً أفاضه الله عليه بأنواع الوحي فهو علم صحيح لا يحتمل الخطأ لأنه من عند الله رب العالمين، ثم حقق صلى الله عليه وسلم مقتضى ما علمه الله تعالى فكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم هي الحكمة النبوية الصحيحة.

قال تعالى:(وما ينطق عن الهوى *إن هو إلا وحي يوحى).

[1] المسند ٤٣٢٢

ويزعم بعض الملاحدة والمنكرين رسالة سيدنا محمد أنه لا وحي من الله ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن علوم النبي صلى الله عليه وسلم هي بمقتضى ذكائه وفطانته واستقرائه لأمور الغيب، فيقال في سياق الردود على هؤلاء:

لقد نشأ رسول الله أُمّياً لم يقرأ كتاباً ولم يكتب ولم يأخذ العلم عن أحد بشهادة قومه الذين نشأ فيهم فمن أين أتى بالإخبارات عن الأمم السابقة وأحوالها وما جرى عليها وحدّث عن ذلك مفصلاً ؟!

ومن أين أتى بالأخبار عن الأمور الغيبية التي ستقع في عصره وبعده إلى يوم الدين ووصفها بالتفصيل في أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم؟!

ومن أين أتى بالقرآن الكريم الذي قرأه على الناس وأعجزهم في بيانه وفصاحته وكلماته وإخباراته وأحكامه، وعجز فصحاء العرب عن الإتيان ولو بآية مثله؟!

نعم إن كل ذلك من شواهد صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حقاً رسول الله أرسله الله وأوحى إليه وأمره أن يبلغ الناس، قال تعالى:(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر) أي على أذى المنكرين وجحود الكافرين (إن العاقبة للمتقين) وما الأمور إلا بعواقبها، وحسن العواقب للمتقين.

وقال تعالى:(واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين).

ومما تقدم يتبين لك أن أقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله هي الحكمة أي هي الصواب والسداد لأنها بموجب العلم الصحيح، لأن العلم الصحيح هو ما كان من عند الله تعالى، وما علوم الرسول ومعارفه إلا بوحي الله تعالى له، ومن أراد الله به خيراً آتاه الحكمة أي علّمه من العلوم الشرعية المحمدية فحفظها وصار يعلمها الناس ويقضي بها، ومن كان كذلك وصْفُهُ فهو يُغبط عليه،فلا تغبط الأغنياء على كثرة أموالهم فقد تكون أموالهم حسرات عليهم يوم القيامة، بل اغبط من قام بما أوجبه الله عليه وأنفق أمواله في طرق الخير ومن تعلم الحكمة وعلَّمها .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) في كتاب العلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً ومتعلماً]. رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

قال: وقوله صلى الله عليه وسلم: [وما والاه] أي طاعة الله تعالى.اهـ

قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع وتوقف ثواب أعماله التكليفية الدنيوية من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها إلا أن هناك بعض الأعمال يستمر ثوابها للإنسان ولو بعد موته وهي التي نبهنا إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

[صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له].

وفي هذا بيان من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لفضل العلم وشرفه ونفعه لصاحبه، وهو العلم الشرعي المتضمن العلم بآيات الله تعالى وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتفرع عنها.

فمن مات انقطع ثواب عمله إلا العمل الذي يستمر خيره ونفعه فيستمر ثوابه لصاحبه بعد وفاته، كالصدقة الجارية وتشمل الوقف كمن بنى مسجداً أو ساهم في بنائه أو قدَّم فيه ماء ليشرب منه الناس.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو علم ينتفع به] كمن علّم الناس أمور دينهم فانتفعوا به وعملوا بعلمه فيجري ثواب ذلك إليه لأنه اشتغل بتطبيقه وجمع كتباً فيها بيان أمور دينهم ومنافعهم فيجري ثواب ذلك إليه بعد وفاته طالما أن كتبه يتناولها الناس وينتفعون بها.

قوله صلى الله عليه وسلم:[أو ولد صالح يدعو له] فينتفع الوالد بعد وفاته بصلاح ولده وأحفاده من بعده ودعائهم له، وهذا لأن الوالد تسبب في صلاح ولده وسعى في ذلك ونوى ودعا أن ينفعه الله بذريته وأحب لهم الإيمان والصلاح، وأما إذا أراد لهم الكفر والضلال فيعود وبال ذلك عليه ، نسأل الله العافية.

وأما من ابتلي بأولاد فسقة وهو لا يريد ذلك بل ينكر عليهم أفعالهم ويدعو لهم بالصلاح والدين فلا مؤاخذة عليه، ولا يجري وزرهم إلى صحيفته لأنه لم يتسبب في فسقهم وضلالهم.

ومن الصدقة الجارية أيضاً أن يورث المؤمن مصحفاً يضعه في المسجد ليقرأ الناس به، وكذا أن يوقف كتباً علمية شرعية ينتفع بها طلاب العلم. ومن الصدقة الجارية أيضاً أن يوقف الإنسان للمسجد كل ما يحتاجه من متاع وأثاث، وكذلك حفر بئر في قرية يفتقر أهلها إلى الماء وهكذا فإن الصدقة الجارية تشمل كل عمل صغير أو كبير يستمر خيره وينتفع به الناس في دينهم أو دنياهم ويعود ثواب ذلك إلى صاحبه ولو بعد وفاته.

وإذا كان ابن آدم ينقطع ثواب عمله التكليفي الدنيوي بعد وفاته - إلا ما كان من الأمور الثلاثة المتقدم ذكرها في الحديث - فإن الأعمال في برازخ الآخرة لا ينقطع عنها ابن آدم، ولكل برزخ من برازخ الآخرة أعمال يترتب عليها ثواب وعقاب ويترتب عليها أمر مآلِهِ، وأول هذه الأعمال التكليفية في أول برازخ الآخرة - وهو ما بعد الموت - أن يُكلَّف الإنسان بالجواب عن سؤال يلقى إليه ويترتب على جوابه ثوابه وعقابه كما دلت على ذلك أحاديث سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يسأل الميت في قبره عن إيمانه بالله ورسوله وموقفه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان موقف المطيع الذي أجاب دعوة رسول الله واتبعه أم لا، فيقال له : [ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات من عند ربنا فصدقناه واتبعناه فيقال له : صدقت وعلى هذا حييت وعلى هذا مت وعليه تبعث إن شاء الله] [1].

ولا يجيب بذلك إلا المؤمن حقاً الذي أجاب دعوة سيدنا رسول الله واتبعه حقاً إذ كيف يقول: " فصدقناه واتبعناه " من لم يتحقق بذلك في عالم تظهر فيه الحقائق، لأن حقيقة الإنسان التي تحقق بها هي التي ستجيب بقول صادر عن تحققه، ومن أجاب نال الثواب وأصاب نعيم البرزخ على حسب إيمانه، ومن لم يجب أصابه العقاب ودخل في عذاب البرزخ ، أعاذنا الله من عذاب القبر.

ومن كان في الدنيا يحب عملاً تعبدياً ويعشقه ويلازمه كالصلاة أو تلاوة القرآن أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك من القربات العملية أو القولية فإن الله تعالى يكرمه في البرزخ بأن يستمر على ذلك العمل ليتلذذ ويتنعم به وينال ثواب ذلك وترتفع درجاته في الآخرة.

[1] عزاه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط

ومن ذلك ما سمعه الصحابي من قبر صحابي آخر سمعه يقرأ سورة الملك كما في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

[ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ) حَتَّى خَتَمَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ].[1]

وكذلك جاء أن الله تعالى أكرم التابعي الجليل ثابتاً البُناني رضي الله عنه [2]بأن يصلي في قبره لأنه كان يحب الصلاة وخاصة في الليل وهكذا [3].

---

[1] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

[2] قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/٢٢٠ :
ثابت بن أسلم الإمام القدوة شيخ الاسلام أبو محمد البناني ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : إن للخير أهلاً، وإن ثابتاً هذا من مفاتيح الخير.
وكان رضي الله عنه من أئمة العلم والعمل يقرأ القرآن في كل يوم وليلة .
وعند محمد بن ثابت قال: مات ثابت سنة سبع وعشرين ومئة وهو ابن ست وثمانين سنة .

[3] جاء في مصنف ابن أبي شيبة : أن ثابتاً البناني رضي الله عنه كان يقول :"اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري".
وجاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : حدثنا شيبان بن جسر عن أبيه، قال: أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتاً البناني لحده ومعي حميد الطويل - أو رجل غيره شك الراوي - فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنة فإذا به يصلي في قبره فقلت للذي معه: ألا ترى، قال: اسكت، فلما سوينا عليه وفرغنا أتينا ابنته فقلنا لها: ما كان عمل أبيك ثابت؟ فقالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة فإذا كان السحر، قال في دعائه: " اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك الصلاة في قبره فأعطنيها " فما كان الله ليرد ذلك الدعاء.

ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ينقطعون عن عبادة الله تعالى أبداً كما قال صلى الله عليه وسلم: [الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون][1].

وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:[لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ][2].

وقد يكرم الله تعالى أتباع الأنبياء بأن يستمر أحدهم على عمل كان يحبه ويلازمه في الدنيا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع ثواب أعماله التكليفية الدنيوية إلا ما كان من أمور يستمر خيرها فيبقى ثوابها وهي الصدقة الجارية والعلم الذي ينتفع به والولد الصالح الذي يدعو له كما في الحديث المتقدم.

ومن جملة الأعمال التكليفية التي يكلف بها أهل الموقف في برازخ الآخرة أن تؤمر الخلائق كلها بالسجود لله رب العالمين كما قال تعالى:
(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون).

وقد جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:
[يكشف ربنا عن ساق فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً][3].

---

[1] عزاه في مجمع الزوائد لمسند أبي يعلى والبزار
[2] المسند ١٣١٠٣
[3] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

فيتجلى رب العالمين ويكشف عن عظمته وكبريائه كما يقال في اللغة - ولله المثل الأعلى -: [كشفت الحرب عن ساق] [1]أي عن شدة وهول، ويُدعون إلى السجود، فمن كان يسجد لله تعالى في الدنيا يسجد له في الآخرة وينتفع بذلك السجود إما بتكفير سيئات أو رفعة درجات، ومن كانت حسناته وسيئاته متساويتين ترجح كفة حسناته بذلك السجود ويدخل الجنة.

وأما الكافر أو المنافق فيريد أن يسجد فلا يستطيع ويعود ظهره طبقاً واحداً لا ينحني، ومن هنا ندرك قيمة ومنزلة الإخلاص في عبادة الله تعالى.

كما أن هناك آخر التكاليف البرزخية وهي امتحان العقيدة الإيمانية بالله تعالى، ولا ينجو إلا من كان يعتقد بالله جل وعلا أن له المثل الأعلى أي الوصف الأعلى المنزه عن الشبيه والمثيل والنظير وأنه سبحانه ليس كمثله شيء.

وجاء بيان ذلك في الحديث الذي يقول فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :[حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا ، قَالَ : فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ .

---

[1] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :
وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة أنه سئل عن قوله تعالى : { يوم يكشف عن ساق } قال : إن العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون .

وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا [١].

ولا تنقطع التكاليف الإلزامية إلا بدخول الجنة حيث ينقلب فيها التكليف إلى تكييف، فأهل الجنة يصلّون ويسبّحون ويحمدون ويكبِّرون، ويكون ذلك على سبيل الكيف الذي لا مشقة فيه، وعلى وجه الولع بالشيء والتلذذ والتنعم به كما قال صلى الله عليه وسلم:[يُلهَمون التسبيح والتحميد] - وفي مسند عبد بن حميد : [وَالتَّكْبِير] - [كما تلهمون النفس][٢].

فكما لا يجد الإنسان في حياته الدنيا كلفة ولا مشقة في شهيقه وزفيره فكذلك أهل الجنة، فإن التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى هو حياتهم وهو نعيمهم.

ويدل ذلك أيضاً على أن عبادات أهل الجنة مستمرة متوالية لا تنقطع ولا يفترون عنها كما لا يفتر الإنسان في الدنيا عن نفَسه.

وقد سمي النفَس نفساً لأن حياة النفْس تتوقف عليه، ولما كان التسبيح والتحميد والتقديس بالنسبة لأهل الجنة بمنزلة النفَس كان به حياتهم وبقاؤهم ونعيمهم دونما مشقة أو عناء، ويدل هذا أيضاً على أن عبادة أهل الجنة في الجنة أكثر مما كانوا عليه في الدنيا وأشد إخلاصاً لأنهم يعبدون لله تعالى عن شهود قلبي وفكري وعقلي وبصري وسمعي، وهذا ما دل عليه أيضاً الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا "هلموا إلى حاجتكم "قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم - وهو أعلم منهم -: ما يقول عبادي؟

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[٢] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً][1]...الحديث

ويترقى أهل الجنة بسبب عباداتهم يترقون في المنازل والدرجات والنعيم المتجدد لأن أحدهم لو دام عليه نعيم معين لأَلِفه وأصابه الملل والسآمة، مما يدل على أن النعيم في الجنة نعيم متجدد متطور، قال سبحانه:(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلاً) أي لا يريدون ولا يرغبون في التحول عنها لأنهم في نعيم دائم متجدد، وفي دار ضيافة رب العالمين جل وعلا، كما أنه لا استعداد عندهم للتحول عنها فهي دارهم ومقرهم ،وهم أهلها الذين حلوا فيها بعد أن استعدوا وتأهلوا لنيل فضل الله تعالى عليهم.

وجاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا [2]] أي ارق في العلوم والمعارف الإلهية، وزد في الدرجات والمنازل و النعيم في الجنة.

واعلم أن الترقي في الدرجات والنعيم في الجنة لا حد له ولا انتهاء ولا نفاد لأن الله تعالى يقول:(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) كما أن المعرفة والعلم بالله تعالى وبصفاته وكمالاته لا انتهاء لها لأن الله تعالى لا تتناهى أسماؤه وكمالاته، وقد قال جل وعلا:(ولا يحيطون به علماً) وكيف يحيط المتناهي بمن لا يتناهى؟!.

---

[1] في صحيحه كتاب الدعوات

[2] المسند ٦٥٠٨

واعلم أيها الإنسان أن العوالم التي خلقها الله تعالى والتي سيخلقها لا حد ولا انتهاء، وأن كل عالم تنتقل إليه هو أكبر وأوسع من العالم الذي تركته ،وهذا ما تشهده في الدنيا قبل برازخ الآخرة فقد انتقلت من جزيء حي من نطفة والدك إلى رحم والدتك ثم طورك الله تعالى إلى علقة تعلقت في جدار الرحم ثم إلى مضغة أي قطعة لحم قدر المضغة ثم طورك الله تعالى وشق سمعك وبصرك وخلق سائر أعضائك إلى أن صرت جنيناً في رحم ضيق لا تشعر بما حولك، ثم نقلك سبحانه إلى عالم الدنيا الذي هو أكبر من عالم الرحم حتى إذا انتهت إقامتك في الدنيا انتقلت إلى برزخ ما بعد الموت وهو عالم أوسع وأكبر من عالم الدنيا، وخلق الله فيك من المدارك والحواس ما يناسب ذلك العالم كما قال تعالى:(وننشئكم في مالا تعلمون) وهكذا تنتقل في عوالم الآخرة إلى أن يدخل المؤمن الجنة والكافر النار.

اللهم اجعلنا من أهل الجنة برفقة كاشف كل غُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر] رواه أبو داود والترمذي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

العلم الذي جاء ذكره في الحديث المتقدم هو العلم الذي أنزله الله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو العلم بكتاب الله تعالى والعلم بأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجميع العلوم الشرعية تتفرع عن الكتاب والسنة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة] أي: من خرج من بيته وقصد المسجد أو غيره ليسمع علماً يقربه إلى الله تعالى من تفسير آية أو حديث أو موعظة أو تعلم أمور دينه من الحلال والحرام فإن طريقه الذي سلكه لسماع ذلك هو طريق موصول إلى الجنة، أو أن قوله صلى الله عليه وسلم: [سهل الله له طريقاً إلى الجنة] أي بتحقيق ما تعلمه بالتطبيق والعمل به وبذلك يعدُّه الله لأن يكون من أهل الجنة.

وفي الحديث بشارة لكل مؤمن يسعى في تعلم أمور دينه، وأن طريقه الذي مشى به لذلك سيصل به إلى الجنة، ومن مشى في طريق الجنة فإن الله تعالى لا يرده ولا يخيبه.

ولا يقتصر طلب العلم على أولئك الذين انتسبوا لمدارس العلوم الشرعية، بل إن الحديث يشمل أيضاً كل من سلك سبيل العلم وهو في المساجد أو حلقات العلم أو غيرها، إذ لم تكن المدارس على الهيئات المعروفة في زمننا الحاضر مألوفة في زمن السلف الصالح، وإنما كانت حلقات علمية في المساجد أو كلمات فيها الوعظ والتذكير، والصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا يسمعون العلم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وغيره من مجالسه الشريفة فيتلو عليهم آيات الله تعالى ويبين لهم أمور الدين بأحاديثه وأفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وأما من فرّغ وقته لطلب العلم وشغل نفسه بذلك وأخلص لله في طلب العلم فإن أجره وفضله أعظم وأكبر.

ولقد كان بعض السلف يرى أنه من أراد أن يتقرب من الجنة فليتقرب من مجالس العلماء ويكون بذلك قد سلك طريق الجنة بضمانة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بيّن في الحديث المتقدم أن السعي إلى مجالس العلماء سعي إلى الجنة.

ويقال لمن زعم أن لا فائدة ولا نفع من مجالس العلم، ويكفي المؤمن أن يعبد ربه أو ينظف قلبه ويعبد ربه، يقال له:

إن السبيل لنظافة القلب والنفس يحتاج إلى علم، كما أن عبادة الله تعالى تحتاج إلى علم ومعرفة بكيفية عبادته سبحانه.

ولقد كان من مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فلا بد إذاً من تعلم آيات الله تعالى وسماع أحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم التي بيّن فيها جميع ما يحتاجه الإنسان في عباداته لله تعالى بل وجميع ما يحتاج إليه في حياته الدنيا والآخرة.

وإذا كانت النجاسات الحسية الظاهرة تحتاج إلى علم يفرق به المؤمن بين النجس والطاهر فما بالك بالنجاسات النفسية والأمراض القلبية؟!

فلا بد لمعرفتها وسبل الطهارة منها من علم شرعي محمدي إذ قد يظن المرء أنه طاهر القلب زكي النفس والحال أن أمراض القلب قد أسقمته حتى راح يدعي أنه طاهر القلب طيب النفس.

فلو أن أحداً أبيح له أن يستغني عن العلم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لاستغنى كبار الصحابة عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنهم بلغوا أعلى المقامات في الإيمان إلا أن أحدهم لم يستغن عن سماع حديث واحد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان من المعلوم عند كل عاقل أن حياة جسمه متوقفة على الهواء والغذاء والماء ولا يمكنه أن يستغني عن ذلك لتستمر عليه الحياة فكذلك حياة روحه التي قام بها جسمه لا بد لها من غذاء ومدد حتى تحيا الحياة الطيبة الأبدية، ولا تتغذى الروح ولا تحيا إلا بسماع آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا يعلم المؤمن العاقل أنه لا يمكنه أن يستغني عن حضور مجالس العلم والوعظ مهما كثر سماعه وطال عمره.

وقد قال صلى الله عليه وسلم:[لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ] [1].

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع]،وفي رواية [بما صنع][2].

فمن مشى إلى مجالس العلم فإن الملائكة تضع أجنحتها تواضعاً وتكريماً له، وإن الطير إذا أراد أن يتوقف عن الطيران طوى أجنحته، وفي هذا يقول سبحانه بالأمر بالتواضع: (واخفض جناحك للمؤمنين) كناية عن التواضع معهم.

قال المُناوي في فيض القدير: (إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم) تبسطها له وتفرشها تحت قدميه.[3]اهـ

أي: توقيراً وتعظيماً له لماله من المكانة والفضل عند الله تعالى.

وفي هذا أيضاً تبرك الملائكة بطالب العلم[4]إذا كان صادقاً مخلصاً لله تعالى في طلب العلم.

---

[1] سنن الترمذي كتاب العلم

[2] جاء في مصنف عبد الرزاق ٢٠٤/١ : [ما من خارج يخرج من بيته في طلب علم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضى بما صنع] .

[3] ٦٩٣/١

[4] ويسمى كل من قصد المسجد أو غيره لسماع العلم يسمى (طالب علم) وإن لم يكن منتسباً لمدرسة أو رباط معين، كما يسمى من خرج لشراء الخبز والخضروات والفواكه (طالب خبز) وهكذا.

ولكي يستفيد طالب العلم وينتفع بما يسمعه من آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عليه أن يتحقق بالإخلاص لله تعالى، وأن يطهر قلبه وينظفه من الشبهات والأمراض القلبية، ويتقبل ما يرد عليه من آيات وأحاديث بالتسليم، فإذا فعل ذلك استفاد وانتفع ووجد حلاوة ما يسمعه في قلبه..

ألا ترى أن الماء الصافي يسكب في الإناء فيتعكر إذا لم يكن الإناء صافياً نظيفاً فيظن الجاهل أن الماء عكر مشوب ولكنه في الحقيقة صاف ونظيف تعكر بما في الإناء من أوساخ وشوائب، وهذا مثل القلب وما يرد عليه مما يسمعه صاحبه من "قال الله" و"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فإذا كان القلب نظيفاً خالياً من الشوائب والآفات والشبهات قبِل ما يرد عليه من آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ووجد حلاوتها واستفاد وانتفع بها.

وإذا كان القلب مريضاً بالكبر والتعالي أو خيمت عليه الشبهات فلا يجد حلاوة لما يسمعه من آيات الله جل وعلا وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما اتهمها بالنقص والخلل، والحال أن سقم قلبه ودرنه منعه من معرفة الحق والانتفاع به.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء] والحيتان جمع حوت وهو في الأصل السمكة الكبيرة، وقد تطلق كلمة حيتان البحر على دواب البحر كلها والظاهر هنا هو المراد كما نص عليه العلماء[1].

وإن العلم بـ "قال الله تعالى " و" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هو نور السموات و الأرض وبه قوامها، وعندما يريد الله تعالى تخريب هذا العالم بسمواته وأرضه لا يبقي في الأرض علماً بـ "قال الله جل وعلا " و" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فتقوم الساعة عندئذ.

[1] انظر كتاب عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣٧/٨ وكتاب تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ٤٨١/٦

فطالما أن العلماء هو قوام السموات والأرض فإن أهل السموات والأرض يستغفرون للعالم أي يدعون له أن يغفر الله تعالى له ويعظم نفعه ويرقي مقامه.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:[ذُكِر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير] .

وإن أصل الخير ومنبعه هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من تلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم له نصيبه من تعليم الخير.

وما دام أهل السموات وأهل الأرض يستفيدون من علم العلماء وتعليمهم الخير فإن النحلة أيضاً لها حظ في ذلك بأن العالم يبين للناس أن لا يؤذوا النحلة ولايطؤوا جحرها، وهكذا جاء بعلم فيه رحمة حتى للنحلة فراحت النحلة تدعو وتستغفر للعالم الذي يعلّم الخير.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [وإن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم] وفي حديث آخر : [وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب][1].

اعلم أولاً أنه لا بد للعالم والعابد من علم بالواجبات الشرعية والمنهيات الشرعية فمن تعلمها واقتصر عليها وانصرف بكليته إلى عبادة الله تعالى وشغل وقته في الطاعات العلمية والقولية فيقال عنه إنه عابد.

وأما من قام بالواجبات الشرعية وانصرف إلى طلب العلم وشغل وقته ما بين طلب للعلم وتعليمه للناس فيقال عنه إنه عالم.

[1] انظر سنن الترمذي كتاب العلم

وإن عبادة العابد يقتصر نفعها على نفسه فقط، وأما العالم فقد انتفع بما تعلم وراح ينفع الناس فنفعه متعدٍّ إلى غيره ففضله عند الله تعالى أكبر وأعظم من فضل العابد، كما يستضيء أهل الأرض بنور القمر دون غيره من الكواكب مع أن الكواكب نيرة لكن نورها لا يستنير منه أهل الأرض كما يستنيرون من نور القمر.

واعلم أن القمر والكواكب كلها إنما تستمد نورها من نور الشمس الفلكية فكذلك العلماء والعبّاد والمؤمنون إنما يستمدون النور من شمس الذات المحمدية .

وقد كان من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه السراج المنير كما قال تعالى:(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وهو صلى الله عليه وسلم يستفيض نوره من رب العالمين جل وعلا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن العلماء ورثة الأنبياء] يعني أن العلم بما جاء عن الله ورسوله هو علم موروث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا بد في كل زمن من علماء عاملين يحملون هذا العلم المحمدي يبلغونه للناس وبهم تقوم حجة الله على خلقه، إلا أنهم آخر الزمان يقل عددهم ولكن الأرض لا تخلو منهم تصديقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك][1].

وفي رواية: [ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله] [2].

وفي رواية: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال].[3]

---

[1] كما في صحيح مسلم كتاب الإمارة
[2] صحيح البخاري كتاب العلم عن معاوية رضي الله عنه
[3] سنن أبي داود كتاب الجهاد عن عمران بن حصين رضي الله عنه

وفي رواية: [لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام].[1]

وهذه الطائفة تشمل العلماء والأولياء والأتقياء والصلحاء.

وينبغي على المؤمن العاقل أن يسأل الله تعالى أن يعرِّفه على العلماء والأولياء وأن يجمعه بهم لينال من خيرهم وينتفع بهم لأنهم كالعرائس لا يراها إلا المحارم .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

[1] المسند ١٩٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الذكر والحث عليه:

وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: [كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يومٍ ألف حسنةٍ؟! فسأله سائلٌ من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنةٍ؟ قال: يسبح مائة تسبيحةٍفيكتب له ألف حسنةٍ، أو يحط عنه ألف خطيئةٍ] رواه مسلم.

قال الحميدي: كذا هو في كتاب مسلمٍ: [أو يحط] قال البرقاني: ورواه شعبة وأبو عوانة ويحيى القطان عن موسى الذي رواه مسلم من جهته فقالوا: [ويحط] بغير أَلِفٍ.

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقةٌ، فكل تسبيحةٍ صدقةٌ، وكل تحميدةٍ صدقةٌ، وكل تهليلةٍ صدقةٌ، وكل تكبيرةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى] رواه مسلم.

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسةٌ، فقال: [ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلتُ بعدك أربع كلماتٍ ثلاث مراتٍ لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته] رواه مسلم.

وفي روايةٍ له: [سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته].اهـ

يدل الحديث المتقدم على أن الله تعالى يعطي العبد على التسبيحة الواحدة عشر حسنات فلو سبح الله مائة مرة أعطاه الله ألف حسنة وحط عنه ألف خطيئة كما تقدم، والمراد من الخطايا الذنوب الصغائر التي لا تتعلق بحقوق العباد لأن حقوق العباد لا بد أن يغفر صاحبها حقه ويضعه عمن ارتكبه، وأما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة خاصة.

وقد يزعم قائل أنه ينفي أخذ الحديث على إطلاقه يعني أن التسبيح يحط الخطايا كلها صغيرها وكبيرها فيقال في الجواب:

إن تكفير الخطايا مقيد بالصغائر دون الكبائر دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم:

[الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ].[1]

فقوله صلى الله عليه وسلم: [مكفرات ما بينهن] يعني من الصغائر، ولا بد للكبائر من توبة خاصة معينة تتضمن شروط التوبة النصوح من ندم واستغفار وعزم على ألا يعود إلى فعل المعصية .

وأما من سبح الله وحمده واستغفره ونوى التوبة من ذنوبه الصغيرة والكبيرة وندم وتأسف على فعلها فهو يعتبر تائباً إلى الله تعالى.

وفي رواية للحديث المتقدم: [أو يحط عنه ألف خطيئة[2]]
وفي رواية:[ويحط عنه ألف خطيئة[3]] فكلمة [أو] تفيد معنى الواو كما نبه عليه المحدثون.[4]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الطهارة
[2] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[3] كما في مصنف ابن أبي شيبة
[4] قال القاري في مرقاة المفاتيح ١٥٩٥/٤: " وقد تأتي الواو بمعنى (أو) فلا منافاة بين الروايتين، والمعنى: أن من قالها يكتب له ألف حسنة إن لم يكن عليه خطيئة،

ويدل هذا الحديث أيضاً على كثرة تعرض الإنسان للذنوب الصغائر ولذلك شرع الله له أقوالاً وأفعالاً إن هو قام بها كفَّر الله بها عنه ما صدر منه من صغائر، وجاء بيان ذلك كله في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث القدسي يقول سبحانه: [يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار[1]] فمن سَلِم من الكبائر قد يقع في الصغائر، ومن سلم منها قد يقع في أصغر الصغائر، وكل مؤمن على حسب إيمانه ومقامه، ألا ترى أن الآداب المطلوبة من الأولياء والعارفين أشد وأقوى من الآداب المطلوبة من غيرهم من عامة الناس.

ومن هنا تعلم أنه كلما ارتقى المؤمن في مقامات الإيمان والكمال ازدادت مسؤوليته ودقة المؤاخذة عليه من صغائر يراها مَن هو أدنى منه من المباحات، وهذا معنى القول :

" حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومباحات العوام سيئات الأبرار[2]"

فمن فضائل التسبيح أنه يكفر الصغائر ويزيد في الحسنات، كما أنه يثبت الإيمان في القلب ويزيده أيضاً مراقبة لتوحيد الله تعالى على الدوام إذ قد تمر على القلب خواطر ووساوس تنافي توحيد الله تعالى عما لا يليق فيأتي التسبيح ويزيل تلك الخواطر والوساوس ويطردها.

وإن كانت عليه فيحط بعض ويكتب بعض، ويمكن أن تكون (أو) بمعنى الواو، أو بمعنى (بل) فحينئذ يجمع له بينهما، وفضل الله أوسع من ذلك".

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[2] هذا القول: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضياء الدين الكمشخانوي النقشبندي في جامع الأصول في الأولياء ص ٢١٦، ورفعه أيضاً شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي في حدائق الحقائق ص ١٧, وممن عده حديثاً الشيخ أبو الفضل محمد بن محمد الشافعي فإنه قال في كتابه " الظل المورود " (١٢/ ١): فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: .... فذكره، وعزاه العجلوني في كشف الخفا إلى أبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وعزاه الزركشي في لقطته للجنيد، والقرطبي في تفسيره للإمام الجنيد أيضاً، وقال الإمام الغزالي في الإحياء: قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وتسبيح الله تعالى هو تنزيهه جل وعلا عما لا يليق به من الآفات والعيوب والنقائص، وتنزيهه سبحانه أيضاً عن الشبيه والمثيل والنظير كما قال تعالى:(ليس كمثله شيء) وقال عز من قائل: (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد).

فلو جال فكرك بأن صورت لله في خيالك صورة فقل:" سبحان الله" بلسانك وقلبك أي نزه الله تعالى عن الشبيه الذي قام في خيالك، ونزهه سبحانه عن التمثيل والتصوير والنظير جل وعلا.

فالتسبيح فيه تنزيه وتنزّه، فبالتسبيح يتنزه المؤمن عن الذنوب وينزه عقيدته عما يعتريها من أمور لا تليق نسبتها إلى الله تعالى.

ومما جاء في فضائل التسبيح قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم [1]].

وينبغي على الإنسان أن يجعلها من أوراده اليومية كما دلت عليه أحاديث أخرى بأن يقولها الإنسان في اليوم مائة مرة [2].

قوله صلى الله عليه وسلم: [سبحان الله وبحمده] أي أسبح الله تسبيحاً لائقاً به، وأحمده بحمده اللائق به، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق ، والحمد إثبات الكمالات والمحاسن اللائقة به سبحانه.

واعلم أن المدح والحمد متقاربان في المعنى إذ كل حمد هو مدح ولا عكس، والإنسان لما يمدح أو يحمد غيره إنما يمدحه أو يحمده على صفة كمال هي فيه، فقد يمدح فلاناً على علمه وصلاحه وكرمه.

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان والنذور

[2] كما في أمالي الجرجاني عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَلَّتْ ذَاتُ يَدِي. قَالَ: فَقَالَ: " أَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلاةِ الْمَلائِكَةِ، وَتَسْبِيحِ الْخَلائِقِ، وَبِهَا تُرْزَقُونَ؟ ". قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا تَسْبِيحُ الْخَلائِقِ وَصَلاةُ الْمَلائِكَةِ؟ قَالَ: " سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، اسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى أَنْ تُصَلِّيَ الصُّبْحَ تَأْتِكَ الدُّنْيَا صَاغِرَةً رَاغِمَةً... الحديث

ولما يحمد الإنسان ربه سبحانه إنما يحمده على كمالاته سبحانه، والمحامد ينبغي أن تكون على قدر كمالات ومحاسن المحمود ، وكمالات الله تعالى لا تتناهى، فأنى للعبد أن يحصي ثناء وحمداً لربه سبحانه؟!

وإنما يحمد العبد ربه بما حمد هو سبحانه نفسه وعلَّم خلقه ذلك وبيّن ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، فتقول: "سبحان الله وبحمده" أي أسبح الله تسبيحاً لائقاً به، وأحمده بالحمد اللائق به،كما يرتضيه هو لنفسه جل وعلا.

ومن جملة فضائل التسبيح ما بيَّنه صلى الله عليه وسلم أن الإنسان بتسبيحه وحمده لله تعالى يُسقط عن نفسه ما طالبه الله به من صدقات عن سُلامياته أي أعضائه إذ إن على كل سُلامى من الإنسان صدقة كل صباح يصبح فيه.

روى أبو داود عن أَبِي بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :[فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ ، قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ: النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا، وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنْ الطَّرِيقِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُكَ [1] .

والصدقة على أنواع فهناك الصدقات المالية وهناك الصدقات القولية والصدقات العملية، فمن سبَّح الله تعالى كل صباح ثلاثمائة وستين مرة فقد أدى حق الله عليه بما أمره به من صدقات على كل سلامى فيه ، ومن تصدق بصدقة عن كل سلامياته أجزأه ذلك، وكل إنسان على حسب استطاعته.

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في كل تسبيحة صدقة وفي كل تحميدة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يندب إلى جوامع الكلم في الدعاء والتسبيح والتحميد، ومن ذلك ما قاله لأم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها وأرضاها عنا [1]:

[لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزنت بما قلت اليوم لوزنتهن] أي لرجحت بهن، والكلمات هي:[سبحان الله وبحمده عدد خلقه] أي عدد الخلق الذين خلقهم والذين سيخلقهم ، ولا يعلم عدد ذلك إلا الخالق جل وعلا .

قوله صلى الله عليه وسلم:[ورضاء نفسه] أي تسبيحاً وحمداً يرضى به الله تعالى.

[وزنة عرشه] أي وزنة العرش الذي هو أكبر العوالم الجسمانية المشهودة ، والمعنى: أسبح الله تسبيحاً وأحمده حمداً يزن عرش الله تعالى.

---

[1] ومن الواجب على كل مؤمن أن يسعى في إرضاء أمه التي ولدته فما بالك بأمهات المؤمنين اللاتي يجب أن يكون مقامهن في منزلة أقوى وأعظم من مقام الأم؟! وهن زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواتي قال فيهن سبحانه:(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ويفهم من الآية أنه إذا كان مقام زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق مقام الأم لدى كل مؤمن فإن مقامه صلى الله عليه وسلم فوق مقام الوالد لدى كل مؤمن إذ له صلى الله عليه وسلم مقام الأولوية وليس لأبيك في النسب هذا المقام فافهم.
وقد قال صلى الله عليه وسلم:[إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ].. الحديث كما في سنن أبي داود، وفي صحيح ابن خزيمة : [إنما أنا لكم مثل الوالد لولده] فهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو أوصى بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من أنفسهم، و أحن عليهم من أنفسهم، وأعطف على أنفسهم من أنفسهم، ولذلك فإن من واجب كل مؤمن أن يسعى إلى إرضاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، قال تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) لأنه هو صلى الله عليه وسلم الوالد الأول للمؤمنين وهو الوالد الأعظم لهم، ومما ذكر عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: " نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم". كما في صحيح مسلم كتاب الصيام

فإن قيل: إن العرش عالم حسي والتسبيح والتحميد أمر معنوي فكيف يتوازن التسبيح والتحميد مع وزن العرش؟

فيقال: إن المعاني لها صور نورانية محسوسة مشهودة في عالم المثال ، ففي عالم الدنيا نقول: هذه أمور معقولة وتلك أمور محسوسة ، وهذا يتبع عالم المعاني وذاك عالم المباني، وأما في عالم المثال فإن المعقولات والمعنويات لها أمثلة حسية نورانية، وإن للتسبيح والتحميد مثالاً نورانياً كبيراً، وعلى هذا يكون من سبَّح الله وحمده زنة عرشه أن يكون مثال هذا التسبيح والتحميد النوراني كبير الوزن بحيث يبلغ وزنه وزن العرش.

[ومداد كلماته] أي تسبيحاً وتحميداً يمتد امتداد كلمات الله تعالى ،وكلمات الله تعالى تتضمن كلماته القرآنية التدوينية الشرعية ،وكلماته التكوينية التي يتوقف عليها وجود المخلوقات كما قال تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).

وإن كل مخلوق كبير أو صغير يحتاج في كل لحظة بل أقل من اللحظة يحتاج إلى مدد الله له بأن يمده بالوجود وهو قول الله له(كن) حتى يبقى على هذا المخلوق كونه ، وهكذا فلا يحصي كلمات الله التكوينية إلا الله تعالى، قال جل وعلا:(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً).

فانظر في تسبيحه وتحميده صلى الله عليه وسلم، إنه تسبيح وتحميد من آتاه الله جوامع الكلم، فلم يترك شيئاً من العوالم الماضية والآتية إلا وملأها تسبيحاً وحمداً لله تعالى.

فاتبع أيها المؤمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء عنه من أفعال وأقوال وتسبيحات ومحامد ودعاء تنل خيراً كثيراً، وقد قال تعالى:(واتبعوه لعلكم تهتدون) ولكن هيهات لك أن تلاحظ وتشهد من المعاني ما كان يشهده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يسبح الله ويحمده ، إذ إن ملاحظة المعاني و مشاهدة أسرارها إنما تكون على حسب العلم بالله وكمالاته وعظمته جل وعلا ، وهو صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله، وهو أتقى خلق الله لله كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام :[والله إني لأعلَمُكم بالله عز وجل وأخشاكم له[1]].

وترى المؤمنين كلهم يسجدون لله فهل هم في الخشوع والحضور مع الله تعالى في سجودهم على حد سواء؟!.

نعم يختلف ذلك بينهم على حسب مراتبهم في الإيمان والعلم، وكلما زاد المؤمن علماً بالله وعظمته زاد خشوعه ورقَّت مشاهدته.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين.

[1] انظر المسند ٢٢٣٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) في باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي] رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من وقاه الله شر ما بين لِحْيَيْهِ وشر ما بين رجليه دخل الجنة].
رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

إن من جملة وظائف اللسان التي خلق الله اللسان من أجلها وأودعها فيه الكلام، فاللسان أمانة ائتمن الله الإنسان عليها، وأمره ألا يستعملها إلا فيما شرعه سبحانه بأن لا يتكلم إلا بما فيه الخير والصلاح، ونهاه عن فحش الكلام وعن جميع ما فيه الضرر والأذى كالغيبة والنميمة والكذب والسخرية وغير ذلك.

وقد خلق الله تعالى اللسان في الإنسان ومكّنه من الكلام من أجل أن ينبئ عما في نفسه، ويعبر عن المعاني التي يريدها، فمنها المصالح الدنيوية كالبيع والشراء ومعاملة الآخرين، ومنها المصالح الأخروية وهي كلام طيب يتقرب به إلى الله تعالى كتلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالى والصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما شرعه الله تعالى وبيَّنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن الإنسان إذا أساء في كلامه فقد خان أمانة الله تعالى التي ائتمنه عليها، وتصرف فيها على وجه لا يرضيه سبحانه.

وإن الأذى الذي يصدر أحياناً من اللسان قد يكون أشد من ضربة السِّنان، لما له من آثار سيئة وعواقب وخيمة في نفوس الآخرين، فمَن شتم وسب غيره فقد أصابه بأذى وضرر في نفسه مالا تفعله به ضربة الحجر أو طعنة السيف، وقد يفسد الإنسان بين الآخرين بالنميمة ويغرس في نفوسهم العداوة والبغضاء، وقد يحملهم ذلك على الاقتتال، فاعتبر إذاً في خطر اللسان وما يصدر عنه من كلام!

ولذلك أمر الله تعالى الإنسان أن يشغل نفسه بذكر الله تعالى، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم: [لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب] [1].

يعني أن الكلام كما يؤثر في نفوس الآخرين يؤثر أيضاً في نفس المتكلم وقلبه.

وإن كثرة الكلام المباح - وهو اللغو وهو الكلام الذي لا فائدة منه - يؤثر على قلب المتكلم ويجعل فيه القسوة، فما بالك بالكلام المحرم ، وما أشد تأثيره على قلب المتكلم به؟!

ويصعب ويشق على صاحب القلب القاسي أن يخشع لله تعالى إن هو دخل في الصلاة أو سمع المواعظ والتذكير القرآني والنبوي، كل ذلك لأنه شغل لسانه بلغو الكلام مما أبعد قلبه عن مراقبة الله تعالى.

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد

وقد مدح الله تعالى وأثنى على أولئك الذين يتاجرون ويبيعون ويشترون ويضربون في الأرض ولكنهم لا يغفلون عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة ووصفهم بأنهم (رجال) أي: أنهم رجال في طاعة الله تعالى، فقال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع)- أي: مهما كانت التجارة كثيرة عظيمة، دل على ذلك التنكير في كلمة تجارة (عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً)- جملة تُعلِّل ما تقدم أي لأنهم يخافون يوماً (تتقلب فيه القلوب والأبصار)أي: لأن القلوب معرضة للتقلب والتحول على حسب تقلب الإنسان في أحواله وأفعاله، ولا يحفظ القلب من التقلب والقسوة إلا الإكثار من ذكر الله تعالى في جميع الأحيان والأحوال.

والقلب القاسي هو القلب الذي لا يخشع لله تعالى كما قال سبحانه: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة).

وأما القلب الذي يكثر صاحبه من ذكر الله تعالى فمثله كالأرض الخاشعة وهي الأرض التي تصدعت وتشققت واستغاثت بربها وطلبت رحمته، قال تعالى:(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير).

فلما خشعت الأرض وانكسرت لربها نزلت عليها رحمة الله تعالى فحييت وأنبتت واخضرت وأثمرت، وكذلك القلوب إن هي خشعت وخضعت لربها سبحانه أنزل الله عليها من أنواره وأسراره ورحماته وأحياها حياة الأبد.

وإن للخشوع آثاراً لابد أن تظهر على الخاشع، فلما خشعت الأرض لربها ظهر ذلك عليها بأن تصدعت وتشققت فأنزل الله عليها رحمته، وكذلك إذا خشع القلب بأن انكسر لسلطان وسطوة الرب سبحانه ظهر أثر ذلك على جسم الخاشع بأن يقشعر جلده وتدمع عيناه وتخضع جوارحه وعند ذلك ينزل عليه سبحانه من الأنوار والأسرار على حسب حال الخاشع ودرجته في التقوى.

ولقد علَّمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ من قلب لا يخشع ففي الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ:[اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ،وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ][1] .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي] أي: إن أبعد قلوب الناس عن الله القلب القاسي، وكلما خشع القلب لله تعالى ازداد قرباً من الله تعالى.

وكما تتعب أعضاء الإنسان وجوارحه إن هو أجهدها في العمل كالمشي الكثير أو كثرة القراءة والمطالعة في أمور الدنيا فكذلك يتعب القلب ويكل إن أجهده صاحبه في التفكر بأمور الدنيا وكثرة لغو الكلام حتى إذا جاء إلى صلاته وراح يحضر قلبه ليخشع فلا يستجيب له قلبه لأن التعب والكلل قد سيطر عليه.

وأما من أكثر ذكر الله تعالى ولم يغفل عن الله تعالى ولا في حال من أحواله فإن قلبه يبقى يقظاً قوياً يخشع ويخضع لله تعالى إذا دخل صاحبه في الصلاة أو جلس يقرأ القرآن الكريم ويذكر الله تعالى.

وقد أمر الله تعالى الإنسان بالمواظبة على ذكر الله تعالى في جميع الأحوال ليبقى الإنسان يقظاً حاضراً، قال جل وعلا:(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) أي: جهراً ودون الجهر من القول أي سراً (بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين).

[1] انظر سنن النسائي كتاب الاستعاذة

قوله تعالى:(واذكر ربك في نفسك) وهذا هو ذكر الإنسان ربه في قلبه (تضرعاً وخيفة) يعني به ذكر القلب لله تعالى (تضرعاً) سؤالاً ودعاء ورجاء (وخيفة) أي: وخشية من عظمته وكبريائه جل وعلا (ودون الجهر من القول) يعني به ذكر اللسان ويشمل الذكر الجهري والذكر دون الجهر أي: السر(بالغدو والآصال) أي: في جميع الأوقات (ولا تكن من الغافلين)والمراد أن لا تكون من الغافلين عن ذكر الله تعالى، فاذكره بأي نوع من أنواع الذكر وفي جميع الأوقات.

وقد يجهر الإنسان بذكر الله تعالى ليدفع عنه الغفلة وتقوى همته وليطرد الشيطان عنه.

روى أبو داود عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ لَيْلَةً فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ ، قَالَ: وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ ، قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ ، قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: وَقَالَ لِعُمَرَ : مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، زَادَ الْحَسَنُ فِي حَدِيثِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا، وَقَالَ لِعُمَرَ: اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا][1] .

وصلى الله على معلم الناس الخير وجزاه الله عنا كل خير.

ومن هذا أخذ القوم رضي الله عنهم بذكر الله جهراً لدفع الشيطان وتقوية الهمة وتنشيط النفس، والشيطان يفر من ذكر الله تعالى لأن الشيطان ظلماني ولما ينتشر النور تزول الظلمة.

وأما من اعتاد فحش الكلام واشتغل بالغيبة والنميمة فقد عرض قلبه للظلمة والحجاب عن رب العالمين إن هو لم يتب.

[1] سنن أبي داود كتاب الصلاة

ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ] أي: سواء كان هذا الذنب فعلياً أو قولياً [فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)][1].

فهذا وإن كان وصفاً للكافرين إلا أن فيه تحذيراً للمؤمنين من الإصرار على الذنوب وخطر ذلك على القلوب.

ولما حجبت قلوب الكافرين في الدنيا عن رب العالمين بسبب كفرهم وذنوبهم حجب الله أبصارهم في الآخرة عن رؤيته سبحانه، فقال جل وعلا في الآية بعدها: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)
وكان جزاؤهم من جنس عملهم.

وإن صاحب القلب القاسي الذي قسا قلبه بسبب كثرة لغوه وغفلته عن ربه يصعب ويشق عليه أن يحضر قلبه إذا دعا وسأل ربه، وإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم:

[ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ][2].

يعني أن من أراد أن يستجيب الله دعاءه ويحقق رجاءه فليكثر ذكر الله تعالى في جميع أحيانه حتى لا يقسو قلبه ولا يغفل عن ربه، وإن هو دعا ربه وسأله عندئذ سأله عن قلب حاضر مراقب الله تعالى، ويكون دعاؤه عندئذ أقرب للإجابة وأرجى للقبول عند رب العالمين الذي هو أكرم مسؤول وخير مأمول سبحانه وتعالى.

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
[2] سنن الترمذي كتاب الدعوات

قال تعالى:(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) أي: فكما أجيبهم إذا دعوني عن قلب حاضر خاشع فليستجيبوا لي إذا دعوتهم إلى عبادتي وطاعتي، ومن جملة ما دعانا إليه سبحانه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ودعانا جل وعلا إلى طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال سبحانه:(للذين استجابوا لربهم الحسنى).

فقوله تعالى:(فليستجيبوا لي) أي: إذا دعوتهم إلى طاعتي وعبادتي (وليؤمنوا بي) أي أجيبهم وأثيبهم إن هم عبدوني وأطاعوني (لعلهم يرشدون) أي من أجل أن ينالوا الرشاد والسداد إن هم أجابوا دعوة ربهم لعبادته، وآمنوا بأنه سبحانه يتقبل منهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويثيبهم ويزيدهم من فضله.

وإذا كانت أعضاء الإنسان وجوارحه لا تجد المتعة والراحة إلا بأسباب معينة، فالبصر مثلاً يجد لذته بالنظر إلى اللون الأخضر والأزهار، ولا يجد السمع لذته ومتعته إلا بسماع الأصوات الشجية المشروعة، ولا يجد الظمآن راحته ولذته إلا بشرب الماء البارد، وكذا الجائع يجد راحته ولذته بأكله الطعام الطازج، فلا يجد القلب راحته ومتعته ونعيمه إلا بذكر الله تعالى واللجوء إليه سبحانه، وهذا قوله تعالى:(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أي تسكن وتنعم.

وقوله تعالى:(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيه تنبيه ولفت نظر للإنسان إلى أنه لا يطمئن القلب إلا بذكر الله تعالى ولو كانت الآية:" تطمئن القلوب بذكر الله" لما أفادت الحصر عندئذ، بل قوله تعالى:(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يفيد الحصر ليبين أنه لا تطمئن القلوب إلا بذكر الله تعالى حصراً، ولا تطمئن بذكر غيره.

وإن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها ذكر الله تعالى، لأنك أولاً تقول: "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"، ثم إنك اشتغلت بأمرٍ أمرك الله به بقوله عز من قائل:(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)، ثم إنه من صلى على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بين عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله:[مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا [1]].

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من صلى علي بلغتني صلاته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات].

وقد يتعب لسان الإنسان إذا أكثر من ذكر الله تعالى لكن قلبه لا يتعب ولا يمل ولا يكل، وهذا ما يجده كل مؤمن من نفسه لأن راحة القلب ونعيمه هي في ذكر الله تعالى.

واعلم أن لكل إنسان قلبين، قلباً جسمانياً صنوبري الشكل تتوقف عليه حياة جسمه، وقلباً آخر غيبياً قائماً في هذا القلب الجسماني، وهو موضع الاعتبار والتفكر والتأثر، وهو موضع الخطابات والأوامر الإلهية للإنسان.

وقد يفقد الإنسان إحساسه بقلبه وتأثره به كما هو شأن الكافرين بسبب إعراضه عن رب العالمين، ومثل ذلك مثل سائر الجوارح والحواس التي قد تفقد إحساسها ونورها ووظيفتها، فقد يفقد الإنسان بصره مع أن له عينين كبيرتين، وقد يفقد سمعه مع بقاء أذنيه، وقد يفقد حاسة الذوق بلسانه لآفة أصابته، وكذلك قد يموت قلبه الروحاني الغيبي مع بقاء قلبه الجسماني حياً، وهذا قوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى) أي: إن في تذكير القرآن الكريم ومواعظه لذكرى (لمن كان له قلب) أي: قلب حي يقظ، وإلا فإن جميع المكلفين لهم قلوب جسمانية تحيا بها أجسامهم.

[1] صحيح مسلم كتاب الصلاة

يعني أنه من كان قلبه حياً يقظاً تأثر بمواعظ القرآن وتذكيره وانتفع وزاده ذلك هدى، وأما من كان ميت القلب أو سقيم القلب فعليه أن يصغي سمعه لمواعظ القرآن وتذكيره ويحضر قلبه عند سماعه ما استطاع، وبمواظبته على ذلك ينشرح صدره ويدخل نور القرآن فيه فيتأثر بخبر القرآن وينتفع ويهتدي وهذا قوله تعالى:

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

ونسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بذكره، ويعطِّف علينا قلب حبيبه الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان :

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

[قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار.

قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت .

ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (يعملون)[1] .

ثم قال صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟

قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد.

ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا.

---

[1] قال تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟] .

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

قوله صلى الله عليه وسلم: [لقد سألت عن عظيم] أي: عن أمر عظيم،

وإن هذا الحديث يدل - فيما يدل - على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الفوز بالجنة والنجاة من النار، فكانوا مع شدة خوفهم وورعهم يسألون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال إن عملوها أدخلهم الله الجنة وأنقذهم من النار، وكان صلى الله عليه وسلم يجيبهم عن ذلك ويدلهم إلى ذلك.

وهذا ما يجب على المؤمن أن يكون عليه حاله وهو أن يخاف عذاب الله تعالى ويسأله جنته ويرجوه رحمته.

وقد قال الله تعالى فيما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: [وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة] [1]

كل ذلك لأن الإنسان هو عبد الله تعالى، والله هو ربه، ولله تعالى على عبده حق أن يعبده، لأنه جل وعلا هو ربه الذي خلقه ورزقه ويقويه ويمده بما يحتاج إليه، فقيامه بحق الله عليه هو بمقتضى عبوديته لله تبارك وتعالى.

وهو سبحانه حَقَّ على نفسه تفضلاً منه وكرماً أن يثيب العبد إن هو عبد الله جل وعلا وقام بحق الله عليه.

وأما من عصى ربه وخالف أمره فقد تجاوز حده، فإن أنكر عبوديته لله تعالى وربوبية الله تعالى عليه فقد استحق عندئذ عذاب الله تعالى عدلاً وقسطاً.

---

[1] كما في صحيح ابن حبان كتاب الرقائق

فالله سبحانه وتعالى رب يُعبد لذاته وإن لم يخلق جنة ولا ناراً كما تفعل ذلك الملائكة عليهم السلام.

وقد رغَّب سبحانه عباده في جنته وخوفهم من عذابه، فمن رغب فيما رغَّبه الله تعالى به وأخذ أسباب ذلك فإن ذلك من جملة عبادته لله لأنه رغب فيما رغبه به الله تعالى.

وكذلك من خاف مما خوفه الله تعالى منه وهو النار وأخذ أسباب البعد عنها فهذا من جملة عبادته لله تعالى لأنه خاف مما خوفه الله تعالى منه.

وهذا هو طريق الكمال، وهو أن يعبد الإنسان ربه خوفاً ورجاء ورغبة ورهبة وهذا معنى قول السيدة رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها:
(إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك, ولا طمعاً في جنتك, ولكن علمت أنك إله حقاً تُعبد فعبدتك لذاتك).

ولا يعني هذا أنها تزهد في الجنة ولا تخاف من النار، بل هي تعبد الله تعالى لأنه جل وعلا رب يُعبَد وأمر بعبادته فهي تعبده تبارك وتعالى وإن لم يخلق جنة ولا ناراً.

وقد أخبر سبحانه عن رسله - الذين هم سادة العالم وأفضلهم - أخبر أنهم يعبدون الله تعالى لذاته، ومع ذلك يسألون الله الجنة ويعوذون به من النار، لأنه هو سبحانه رغَّب عباده في جنته وخوَّفهم من ناره، ومن رغب فيما رغَّب الله تعالى به، وخاف مما خوف الله تعالى منه فقد عبد الله وأطاعه، ومن زهد في الجنة واستهان بالنار فقد استصغر ما عظّمه اللهُ تعالى واستخف بأمر الله تعالى، وهذا ما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: [لقد سألتَ عن عظيم] ولم يقل له: إن الأمر سهل يسير لا يحتاج إلى الاهتمام والسؤال عنه.

فدخول الجنة والنجاة من النار أمر كبير عظيم لكن الله تعالى ييسره ويسهله على من سأله وسلك طريقه، وقد قال تعالى:

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز).

فهذا هو الفوز الكبير والفضل العظيم الذي يتفضل به سبحانه على عباده المؤمنين المتقين، لأن الجنة جنة الله تعالى ودار ضيافته وجواره ومشاهدته وتجلياته ورؤيته سبحانه فلا يدخل الجنة إلا الطاهرون الطيبون ولهذا يقال لداخلها يوم القيامة ما جاء في الآية :(طبتم فادخلوها خالدين) وقال تعالى:(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون).

وأما من مات من المؤمنين وله ذنوب لم يتب منها فإنه يتطهر منها في برازخ الآخرة لأن الذنوب أدناس لا بد من التطهر منها لدخول الجنة، ومن مر على برازخ الآخرة ولم يطهر من ذنوبه لأنها كثيرة مستحكمة فلا بد له من غمسة في جهنم ليتطهر، حتى إذا طهر وطاب أخرج من النار وأدخل الجنة، وذلك مع اعتبار شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله صلى الله عليه وسلم الشفاعة الخاصة التي ينالها كل مؤمن على حسبه.

قوله صلى الله عليه وسلم: [تعبد الله لا تشرك به شيئاً] يعني: تتحقق بقولك: "لا إله إلا الله" أي: لا معبود يُعبد بحق إلا الله تعالى.

ثم ذكر له صلى الله عليه وسلم باقي أركان الإسلام.

فذكر له فرائض الإسلام أولاً لأنه لابد للعبد أن يتحقق بها حتى يصح له إسلامه، ثم بعد ذلك يسلك طرق النوافل وهو قوله صلى الله عليه وسلم: [ألا أدلك على أبواب الخير] .

وقال تعالى في الحديث القدسي:

[وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه] [1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: [ألا أدلك على أبواب الخير] أي: الخير الأكبر الشامل لكل خير، ومن جملته خير الدين ليزداد المؤمن تقرباً إلى الله بصدقاته وصِلاته.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الصوم جُنة] أشار بذلك إلى صيام النوافل والتي من جملتها صيام يومي الإثنين والخميس [1]وصيام الأيام البيض من كل شهر[2] وهي أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وهي التي يقارب فيها القمر حتى يصير بدراً، وهناك صيام النصف من شعبان [3]وصيام عاشوراء وصيام يوم عرفة على غير أهل عرفة [4] وقد جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن لم يستطع صيام النوافل لمرض فلينو الصيام إن هو استطاع فإن الله تعالى يثيبه على نيته.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الصوم جُنّة] أي وقاية ، فصوم فريضة رمضان له وقاية، وصوم النوافل له وقاية أخرى، والوقاية تعني الحفظ من الوقوع في المخالفات فيتجنب بذلك عذاب الله تعالى وسخطه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار] أي: تُكفِّر الذنوب الصغائر، أما الكبائر فلا بد لها من توبة معينة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وصلاة الرجل من جوف الليل] وكل نفل يصليه المسلم بعد فرض العشاء يسمى قيام الليل، وأما إذا نام في الليل وقام بعد نصف الليل يصلي فتكون صلاته قيام الليل والتهجد ،

---

[1] جاء في سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ].

[2] روى النسائي في سننه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ وَأَيَّامُ الْبِيضِ صَبِيحَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ].

[3] روى ابن ماجه في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها] ... الحديث

[4] جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ].

وهذا أفضل وأعظم أجراً لأنه ترك الهجود أي النوم وقام يصلي وقت السحر وهو وقت تجلي رب العالمين على عباده القائمين.[1]

وقوله تعالى:(يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) أي خوفاً مما عنده سبحانه من العذاب وطمعاً فيما عنده جل وعلا من الثواب.

(ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس) أيْ نفس هذا شأنها أنها تقوم لله وتتجافى عن المضجع وتنفق مما رزقها الله تعالى، قال جل وعلا: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) أي فلا تعلم نفس هذا وصفها لا تعلم ما أعد الله لها من نعيم تقر به العين.

وفي الحديث القدسي يقول صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا: [أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر][2]، ومن جملة عباد الله الصالحين بالصلاح الخاص قُوَّام الليل كما قال صلى الله عليه وسلم :[عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم...] [3]الحديث .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:[سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة] -أي هو آخر من يخرج من العصاة من جهنم – [فيقال له: ادخل الجنة] ..... الحديث وفيه :

[قال: ربِّ فأعلاهم منزلة؟

---

[1] جاء في كتاب الزاهر للأنباري :
تهجَّد: تفعَّل، من الهجود، وهو السهر. يقال: قد هجد الرجل هجوداً: إذا سهر، وهجد هجوداً: إذا نام. وهو حرف من الأضداد اهـ ٦٦/٢
وهناك أفعال إذا دخلت عليها التاء أعطتها معنى النقيض كما في: "هجد" أي نام "تهجد" ترك النوم، "أثم" وقع عليه الإثم، "تأثَّم "تباعد عن الإثم، "مرض" أصابه المرض" تمرَّض" تعاطى أسباب الشفاء من المرض وهكذا ، وتسمى تاء السلب.

[2] انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

[3] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات

قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)] [1].

وهؤلاء الذين جاء ذكرهم في الحديث القدسي المتقدم: [أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر].

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

[1] في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

فهرس الكتاب

الدرس الأول	٣
الدرس الثاني	١٢
الدرس الثالث	٢١
الدرس الرابع	٢٨
الدرس الخامس	٣٤
الدرس السادس	٤١
الدرس السابع	٤٩
الدرس الثامن	٥٧
الدرس التاسع	٦٥
الدرس العاشر	٧٤
الدرس الحادي عشر	٨٣
الدرس الثاني عشر	٩٠
الدرس الثالث عشر	٩٧
الدرس الرابع عشر	١٠٦
الدرس الخامس عشر	١١٤
الدرس السادس عشر	١٢٣
الدرس السابع عشر	١٣١
الدرس الثامن عشر	١٤١
الدرس التاسع عشر	١٤٩
الدرس العشرون	١٥٨
الدرس الحادي والعشرون	١٦٦
الدرس الثاني والعشرون	١٧٤
الدرس الثالث والعشرون	١٨٣